اسحق ماشباش

عين سماوية

رؤية روائية للتاريخ

ترجمة

وليد تحقاخة

رواية "عين سماوية" ذات الأساس التاريخي تتحدث عن كاترين، والدة الفنان العالمي ليوناردو دو دافنشي. الفتاة المولودة في شركيسيا سُبيت من بلادها وبيعت في إيطاليا أسيرةً. ولكن تبيَّن أن قلب كاترينا كبير: استطاعت أن تستعيد حريتها ووجهها الإنساني.

أنجبت كاترين ولدها الأول وهي في الأسر. ثم أصبح هذا الولد فناناً مشهوراً على مستوى العالم كله. امتهن النحت ومارسه طوال عمره.

سيُطلِع كاتب جمهوريات الأديغيه، والقبرتاي بالقار، والشركس – قرشاي، بل كاتب الاتحاد السوفييتي كله، وجمهورية روسيا الاتحادية، وبطل الإنتاج في روسيا إسحاق ماشباش، سيُطلِع كما قلنا القارئَ على الماضي البعيد مقرّباً إليه الأحداث الماضية.

هذه الرواية لا تحمِّل نفسها إنارة حياة كاترين الأديغية والدة الفنان العالمي الإيطالي ليوناردو دو دافنشي، بطريقة أو برؤية روائية. تاريخ ابنة قومي تاريخ مأساوي. أحاول قدر إمكاني أن أروي للقراء المآسي التي عاشتها كاترين في بلادها، ثم في البلاد البعيدة التي صارت الآن قريبة.

الأديغة من أقدم الأقوام التي عمرت الأرض. وهم يسمون أنفسهم "الأديغة" في حين يسميهم باقي شعوب الأرض بـ "الشراكسة". وهم منذ وعَوا أنفسهم كقومية (أمة) في التاريخ البعيد كانوا يعيشون في أجمل إقليم من شمال القفقاس، حباهم به الله بين بحر قزوين والبحر الأسود وبحر آزوف. وهم يربّون أطفالهم الذين هم أملهم في مستقبلهم، على عدم نسيان ما جرى لهم من مآسيَ في تاريخ بلادهم القريب – البعيد، والاحتفاظ بها في الذاكرة. مهمومون كسائر الأقوام الأخرى بما ينتظرهم، وبما يمكن أن تنبثق عنه الأرض من مآسيَ. يعيشون على أمل اليوم التالي لغياب الشمس.

يقول و. ب. ماركزراف: "أقوى شعوب القفقاس وأشجعها هم الشراكسة" ويقول و. ز دور تيللي "الشراكسة طوال القامة، نحاف الخصور، يتميزون بصفاء العيون وصباحة الوجوه. وحسب ذاكرتي فإن نساءهم أجمل نساء العالم شكلاً وطبعاً".

ويُسهم هوميروس دو بي غيل قائلاً "إن الشراكسة الذين منحوا القرون الوسطى الجمال هم أسود الشراكسة، وهم ناضجو العقول، لم يتنازلوا يوماً عن حبهم المتبادل مع أقربائهم، والذي هو بلا حدود".

من جهته يقول ك. غلافاني في السياق نفسه: "رغم أن الشراكسة يتوزعون على بضعة أعراق فهم موحَّدون".

أ. لونغفورت: "الشراكسة يحتكرون في ما بينهم أرضهم وهواءهم ونارهم وروحهم ورائحتهم".

ويضيف ي. ج غيربير معلومة جديدة: "دان الشراكسة في عصر ما بالمسيحية الرومية الأرثودوكسية".

وينتقل ر. سكارسي إلى موضوع آخر: "يربي الشراكسة أطفالهم على الرجولة والطاعة وضبط النفس حتى بلوغ المراد، وطاعة الأبوين. ويعيشون وفق نمط الحرية الذي اختاروه هم".

ويتكلم فيران على طبيعة أرضهم: "بلاد الشراكسة تسلبك العين بجبالها المتراصة المكسوة بالغابات، والتي هي برارٍ لا حدود لها. هواؤها نظيف يذوب في الصدر، وربما استمد الشراكسة جمالهم منها".

ويطرق م. إبريسي باباً آخر: "على سواحل الشراكسة تنعقد أجمل الأسواق وأغناها، ويساهم في البيع والشراء كثيرون من البلاد القريبة والبعيدة "

وعن حياتهم الداخلية يقول ف. دوبوا مونبير: "أبواب مضافات الشراكسة مفتوحة، تشرح النفوس" وفي موضوع الانشراح يضيف ج. لوقا "لم أر في حياتي قوماً كالشراكسة يتمتعون بانشراح النفس وبراءتها... من الذرة الصفراء يستخلصون العسل وأشربة أخرى دون أن يفرطوا في شربها ولا اشتهائها"

ويصف ف. كلانروم عيون بناتهم "إنها تشبه عيون السماء الهادئة المرتاحة".

ويقول خان جري "إن الزي الشركسي احتل القفقاس كلها".

وفي موضوع الحرب يقول أ. سبنسر: "يفاجئ الشراكسة العدو كالصاعقة. لا يستسلمون للأسر بل يحاربون ما دام فيهم بقية من روح".

وفي الموضوع نفسه يقول تابو دو ماردیني:"الشراكسة لا يفتخرون إلا بالنصر على القوي، ويعدّون الجبن عاراً".

ويصف بوشكينُ الشركسيَّ بأنه "مدجَّجٌ بالسلاح، يستمد منه الثقة والفرح. يحمل معه الخوذة وجعبة السهام وحبال قنص الحيوان

والسيف و"القامة". لا يصدر عنه صوت، يستوي عنده الركوب والترجُّل، قوي الشكيمة، له هيبته إذا نظرت إليه".

ولدى الغروزين قول مأثور "رجل شجاع كالشراكسة". كما لدى الشيشان "رجل قوي كالشركسي".

ويرى يوداني غالوينفومينوس "أن الشراكسة، وإن كانوا وافري العقل، لم يحسنوا إنشاء دولة لهم". وما وصفَنا به صحيح: نسترجع ذكرى الحيثيين الذين جابهوا فراعنة مصر، وسلاطين المماليك الذين حموا مصر... والشراكسة الذين كانوا بين حماة دولة الصين التي أسسها الكيتاي... وماريا تيمرقوه زوجة القيصر إيفان... والعديد من أمراء الشراكسة الذين حصّنوا أرض روسيا وحموها... وأخصبوا أنسال خانات أستراخان الفرس، وسلاطين تركيا، وخانات القرم، وأمير غروزيا وغيره من نساء الشراكسة ومن خلَّفْنهم.

الفصل الأول

شلج (القرية القديمة) عام 1449

بين البحر الأسود وبحر آزوف

كان الإخوة الثلاثة جَراجه، الذين يحملون لقب النبيل، يعيشون بين البحر الأسود وبحر آزوف زمن إمارة جانيه. فارق الأخوان الكبيران الحياة عازبين وهما بين الثلاثين والثالثة والثلاثين. أحدهما لفظ الحياة على يد الدب وهو يصيد، والآخر قتلته الصاعقة. ومن تزوج منهم هو أصغرهم يعقوب. وهو الآخر لم يَسعد في عالم الأديغة. قتلته الصاعقة هو وزوجته. وخلّف الزوجان كاترين الفتاةَ التي بلغت العشرين، والصبيَّ لُوبْلان ذا الستة عشر عاماً.

وأغرب ما جرى هو نجاة الخرافِ السبعة التي تقودها عنزة واحدة، والحصانِ المسروج، من النار. استغرب أهل القرية نجاة كاترينا سليمة أكثر من استغرابهم نجاة أخيها الذي احترقت يده اليسرى. كان كلُّ شخص من أهل القرية يُشيع عن الأسرة ما يشاء: "إله الرعد الكبير شملهما برعايته" "تركت الأسرة لنا ابنتها لتكون عروستنا البِكر، فحفظها الإله لنظل ندعو له" والذين ما يزالون يحتفظون بذكرى الآلهة المتعددة قالوا "لنخففْ من فوضانا، ولنعدْ إلى وعينا" وما كان يقوله الذين يعتنقون دين الروم المسيحي شيء آخر: "أيُّ عودة

للوعي هذه! إلهنا هو عيسى الذي أرسله إلينا الإله الأكبر من السماء". وهم يقفون في وجه من يحاولون دعوتهم إلى الإسلام بالسوط وبالسلاح. يقولون لهم "يا من ندعو ربنا أن تقتحم أفواهَهم الكوليرا والطاعون: أيُّ إله تأتون على ذِكره؟! لن يقبل هذا منكم إلهنا العزيز، خالقُ الكون بأسره، ومن يمده بالحياة. سيصدكم ويصفُّكم على برزخ الفناء. لن يدعكم، أيها المؤمنون بالإسلام، تدخلون الجنة حيث المستراح الذي يتأمله المسلمون، بل سيكرهكم. من ستطيعونه هو مبعوثه النبي محمد. إن لم تسمعوا كلامه الحقّ فستكفّرون بمآسيكم التي لا تشعرون بها في الدنيا، فتدفعون الثمن وأنتم تعيشون حياتكم الفانية. ولكن إن تبتم غفر لكم، وفتح لكم باب جنته." "ابتعدوا أيها الناس عن آل جراجه الذين لعنهم إله الرعد العظيم، تجنّبوهم وإلا خسرتم كل شيء!" بمثل هذه الكلمات يحاولون أن يتحاشى أهل القرية اليتيمين. ومن كان يشفق عليهما تحولوا شيئاً فشيئاً إلى أعداء. وزاد احتقارهم لهما. ومثل هذه الكلمات المهينة حين تسمعها كاترين كانت تعود إلى واقعها، ولا يعيدها احتقار الناس لها. كانت تتحمل وحدها ارتيابها في الناس دون أن تثير شكوك أخيها الأصغر. ولكن ما قاله أخوها لوبْلان يوماً أفزعها:

- لماذا يا كاترين نعيش حياتنا هكذا وحيدين ضعيفين؟ – ثم أضاف سؤالاً أشد ترويعاً من سابقه: – ألأنّ نار صاعقة الربيع أحرقتنا؟

خُيِّل لكاترين أن نهار الخريف الجميل قد أظلم. وارتجفت ساقاها اللتان تحملان قامتها الرشيقة. التقطت السِّكّينة التي كانت تقطع بها اللحم فسقطت منها في رجفتها، وسألته يائسة في لحظتها:

- ما الذي يجعلك تقول هذا ونحن أخ وأخت يا أخي الصغير؟
- يقولون لنا "أسرتكم أسرة لعنها الله". لا يمر الناس من أمام بيتنا، يتحاشوننا!
- ألهذا تقول هذا الكلام؟! — تنهدت كاترينا في صمت، ثم شرحت لأخيها سبب حزنها: – لم نؤذ أحداً فيتحاشَونا. لم يدع والدي وأجدادي سبباً للناس يذكروننا لأجله بسوء. ووالدتنا كما نذكرها كانت منشرحة القلب للجميع. ولا نزال نحتفظ بحنانها يمنحنا الحياة. لا تُخلِ في قلبك مكاناً لمثل هذه الأفكار المتشائمة. فكر في قضاء نهارك بسرور وفي غدنا بمَ سيأتينا فحسبُ. حتى لو نكبَ الزمان أسرتنا الصغيرة والكبيرة فما زلنا في رعاية الله، في صحتنا، سليمين من أي مرض.
- ولكن الناس ينادونني بالأقطع لأني بيد واحدة.

- من ينادونك بهذا لا يعرفون ما سيحدث لهم غداً. العالم مركب من مجاهيل كثيرة. تعال ودعني أعانقك. — عانقت أخاها ثم نصحته على طريقة الأم: – لا تنس معنى ما سمَّوك به "لوبلان"، والآخرون الذين يلمزونك باللقب لا ألومهم، أنا قادرة على هزيمتهم. هل تعرف الرقص؟ لا أظن أن هناك واحداً من الأديغة لا يعرف الرقص... هيا إلى الحلبة مع غنائي. سأدعك ترقص وأنا أصفق لك. إن كنت تعرف كيف تنسجم معي في الرقص فأنا يا لُوبْلان سأرقص معك.
- فيما كانت جْراجه كاترين تراقص أخاها بكل حماسة مع الغناء قطع لوبْلان رقصه فجأة وجلس على المقعد الخفيض:
- هل تعبتَ؟ سألت كاترين متسائلة عن سبب التوقف المفاجئ لأخيها الصغير.
- لا! أجاب لوبلان، ووجد حُجة لنفسه: – كتفي اليسرى لا تسمح لي بمجاراتك.
- لا بأس إن كان هذا السبب... إن رقصت كما اعتدت يا أخي الصغير فستعتاد على هذا أيضاً. –أجابت كاترين أخاها بحذر وقد فهمت حجة أخيها – سأراقصك في يوم آخر، لا تهتم بما جرى لك.

- وكيف أهتم بهذا؟ أنتِ ترقصين جيداً. كانت أمنا تطلب منا أن نرقص... إن دعوك إلى الرقص في حفلة عرس مساء الغد فسيكون مناسباً.
- إن كان هذا رأيَك – مازحته كاترين بوجهها الصبوح وبعينيها السماويتين المرتاحتين المغتبطتين، – فسأطيع رغبتك– لا تظن أني راقصتك مجاناً بلا هدف.
- لم يستطع لُوبْلانَ أن يحتفظ بما كان يكتمه إلى الآن:
- وكيف سترقصين دون أن يدعوك إلى حفلة العرس؟
- أجابت كاترين وكأنها كانت مستعدة للسؤال:
- هل نسيت ما كانت أمُّنا تقول؟ الأعراس الشركسية يحضرها الناس من أنفسهم كما يحضرون المآتم والاجتماعات، دون دعوة.
- تفكَّر لوبلان في ما سمعه. وسمح بحكم ذُكورته بما لا يسمح له تقدم أخته عليه عمراً، فأكد على أخته الكبرى:
- إذن لا أسمح لك بأن ترقصي مع قَرَج!
- لا أعدك بهذا يا لوبلان!
- ماذا؟! هل نسيت قبل أيام كيف كان واقفاً على الشط يسخر منك وأنت لا يسمح لك البحر بالخروج منه؟

- أنا لا أنسى شيئاً. لا تدعني أنقض العادة الشركسية التي لم تبدأ معي. لابسُ القبعة يرقّص لابسة الخمار، وليس العكس. إن كنت محظوظة لم يتوافق دوري ودوره في الرقص...
- أنت مهمومة دائماً بتقاليدنا.... – غمغم لوبلان – والآخرون يعيشون على هواهم...
- وأنت لو لم تكن مهتماً بتقاليدنا لما قلت لي ما قلته. العادات التي اختطها لنا أسلافنا هي فوق كل شيء لنا ولغيرنا. إن لم نحمِ نحن هذا التقليد فمن يحميه! – اختتمت كاترين كلامها بالمزاح:
– ماذا يقلقك؟ أتخاف علي أن يخطفوني؟!
- حسم لوبلان لأخته الموضوع:
- لن يخطفك أحد! – السكّينة التي أخفيتِها عني عندي مثلُها.
- يا للهول! كم أرعبتني!
- لست باعثاً للرعب مثل والدي. أتقبّل أن أكون منصفاً مثل الأمير ردد[1].

---

[1] المعلومات المتعلقة بردد مذكورة هكذا في التاريخ الروسي في (روسي): " عام 6530 = 1022 اقترب ياروسلاف من بيريست. وفي الوقت نفسه هاجم مستيسلاف حاكمُ تومتقاش القسوغَ. وحين عرف رددُ أميرُ القسوغ هذا تصدى لمستيسلاف، ولما تجابه الجيشان قال ردد أمير القسوغ لميستيسلاف: " لماذا ندع أفراد جيشينا يتفانَون؟ لنتصارعْ نحن الاثنين. إن غلبتني يؤول ملكي وزوجتي وأولادي وأرضي إليك. وإن غلبتك صار كل مالَك لي. قال مستيسلاف: " حسناً ليكنْ هذا! " (ص 20) أجاب ردد: " لن نتقاتل بالسلاح،

– لم يُعجِز المثال الذي رواه لوبلان كاترين عن الجواب:
رَدَدْ هذا الذي تشدّ به عضدك بقيت قصة قتله غدراً في أذهان أسلافنا. وهي واحدة من المآسي التي مرت بنا. لا أمل لنا إلا أرضنا وسماؤنا. – سكتت كاترين برهة ثم أضافت إلى ما قالت: – وأنا لستُ ضعيفة القلب. ولكني أخبرك بأني سأسقيك حساء لحم فرخ صغير. علّق لي الوعاء [الشوان] على الموقد غيرِ ذي الأثافي، واملأه لي من ماء جارٍ صافٍ. وبعد أن نتناول فطورنا سنذهب إلى سباق الخيل.

سأل لوبلان مستغرباً ما سمع:

– وهل يسمحون لنا بمشاركتهم؟
– سباق الخيل ليس ملك شخص واحد. كل القرية شركاء فيه.

بل سنتصارع " تصارع الأميران طويلاً. بدأت قوى مستيسلاف تنهار فدعا لنفسه " يا بوغورودينا يا صاحب أطهر القلوب ساعدني! إن ساعدتَني على هزيمته أقمت كنيسة باسمك " قال الأمير هذا وتراجع فقتل الأميرَ ردد بالسكين التي استلها. واستولى على أرضه وملكه وزوجته وأولاده. وفرض أتاوة على القسوغ. ولما رجع إلى تومتقاش بنى لبوغورودينا الواهبِ نفسَه لله كنيسةً. ولا تزال هذه الكنيسة قائمة إلى أيامنا في تومتقاش ".

- أولاد الكلب من صبيان وصبايا الذين كانوا يجرون عروس المجرفة[2] لم يسمحوا لي بالانضمام إليهم.

يا لوبلان – ارتفع صوت كاترينا، وازرقت عيناها الجميلتان الصافيتان صفاءَ السماء، ولكنها اختتمت بصوت رقيق: – لم أسمع من والدنا الطيب مثل هذه الكلمة القبيحة.

- حقاً، حقاً – تراجع لوبلان عما قاله ونظر ناحية قرج الذي لم يكن يطيقه: – رفاق قرج الخبثاء المراوغون ليسوا مأمونين.
- ماذا تقول؟!أعادت كاترين سؤالها إلى لوبلان مستغربة ما تسمع: – هل قلت مراوغون خبثاء! كانت هذه تعابير أمنا تماماً. – تجمدت كاترين حيث هي واقفةٌ ممسكةً بصحن عصيدة لحم الماعز. ثم استعادت وعيها سريعاً. – عليك أن تشكر الله بعد الطعام تبعاً للإسلام وتقول: الحمد لله.
- الشكر والحمد لله لِيتقبل الله تعالى طعامك!
- وهل تعرف الآن ما سنفعل؟
- ألم تقولي إننا ذاهبان إلى سباق الخيل؟

---

[2] حاشية المترجم: في دعاء الاستسقاء ينشد الأولاد وهم يحملون مجرفة مكسوّة بما يشبه ثوب العرس في أثناء جولتهم

- قررت أن نذهب على حصاننا بسرجه.
- سنكون بلا سرج.

قبل أن تكمل كاترين كلامها قاطعتها أصوات رجال يمرون أمام الباب. أنصتت تريد أن تعرف هوية الرجل. أعاد لوبلان أخته إلى الوعي:

- على مبدأ "من تأتي على ذِكره تجدُه عند الباب"، فهذا صوت قَرَج. أيُّ موضوع يتابعه يا ترى؟
- اسأله لأن العادة أن يستقبل حاسرُ الرأس من يغطيه فاسأله؟
- هل تاه عن باب دارنا؟ خرجت كاترين وإن لم تكن متحمسة لمن ترى، وأرتْ قَرَج حرصها على تقاليد الأديغة.
- تفضل دون أن تنظر ما وراء الباب!
- اليوم لا أنوي أن أتفضل عندكم. ولكني جئت من أجل أخيك العنيد، ومن أجلك أنت ابنة آل جراجه.
- شكراً على تذكركم إيانا. – أجابت كاترين مَن يحاول الإحسان إلى مَن نبذَهم أهل القرية نتيجة شؤم الصاعقة، مخفية استياءها. – عندنا حصان نأتي به إلى السباق وإن كانوا ينوون إبعادنا عنه.

- نعم بالتأكيد، عندنا حصان ليس أدنى من الأحصنة التي ستشركونها. وافق لوبلان أخته واثقاً من نفسه.

توقف قرج الذي وصل إلى الباب مصطنعاً ابتسامة، وسألهما:

- هل تقصدان أنكما ستشاركان في السباق بحصانكما؟! — حسناً، حسناً، نيتكما طيبة... سأحمل كبارنا على الموافقة ولو لم يساندني أحد. لا تتأخرا!

لما خلا الاثنان بنفسيهما في البيت ألقى لوبلان نظرة خفية على أخته وهو مدرك لثرثرته في حضرة قرج كأنه يقول بهذه النظرة: سامحيني على سلوكي. ثم عاد فجلس إلى نار الوجاق التي تكاد تنطفئ. ولما غسلت كاترين يديها سألت أخاها وهي تمسح أصابعها الرقيقة إصبعاً إصبعاً ساخرة من جِلسته:

- لِمَ تجلس خافضاً كتفيك أيها المتسابق الطائر؟
- وأنا لا أعرف.

راعِ كلماتك إلى أين تصل. هيا بنا! نفرج عن حصاننا، ونراقب عيون من يتطيرون منا.

لما خرجا راكبين الحصان من دارهما نصف المحترقة التي تعود إليها الحياة شيئاً فشيئاً سأل لو بلان أخته عما كان يشغل باله:

- هل تعتبرين مَن وعدنا أن ينتظرنا إنساناً؟
- ليس هذا من شأننا. لماذا تهتم بالكثير من الأمور؟

أجاب لوبلان أخته متكلفاً الرجولة:

-السبب هو قولهم إن عالم الأديغة متراكب من أمور مجهولة كثيرة.

- وهل تظن الأديغة وحدهم من عندهم هذه المجاهيل الكثيرة؟.. قد لا نجد الجواب طوال عمرنا. ويُخيَّل إليّ أني قد لا أفهمها. مضى عام كامل ونحن وسط هذه الدوامة... أمسِكْ بي جيداً، ثبِّتْ موقعك! – حثت كاترين الحصان بعقبيها، فأطلق لها العنان.

كانوا قد بدؤوا المرحلة الأولى من السباق. فلم ينتبه أحد إلى حصان آل جراجه. غير أن نباب الملتحي الرجل الثخين تعجّب مما رآه:

- انظر إلى هذين الشيطانين!
- عن أي شيطان تتحدث! – أسكتَ قرج صاحبه نباب، وتوجه إلى الفارسين المترادفين: - وصلتما في الوقت المناسب ولو تأخرتما قليلاً. سأُرفقك يا لوبلان بالمتسابقين الآخرين من أولاد جيلك.

- لا، لا، – قالت كاترين. – نحن جئنا لنستمتع برؤية السباق، لا لنتسابق؛ أليس كذلك يا أخي الصغير؟
- نعم يا كاترين — أجاب لوبلان أخته معتدّاً بنفسه.

وفي هذه اللحظة تعثَّر أول المتسابقين فتهاوى وراءه زملاؤه. فانتشلوا من تحت الأحصنة رجلين مصابين وآخر ميتاً محطماً.

- تعال، – همست كاترين في أذن لوبلان كاتمة حزنها لما جرى — دعنا نعود إلى البيت!
- تبين بالعِيان ما كانت تتوجس منه كاترين: جرى الحديث في قرية شلج عن أن آل جراجه هم المسؤولون عن المأساة التي جرت في السباق.

الفصل الثاني

اليوم التالي للسباق

وقت ضربة النسر الكبير

المأساة التي حدثت أمس جعلت قرابة مئة أسرة تعيش في شلج تنكمش على نفسها وتدخل في صمت عميق. تعيش في جبل —وادٍ

إن نظرت من قمته إلى الأسفل داخ رأسُك وإن نظرت إلى الأعلى لم تر إلا ما يمزق القلب من الأسى، ونُتفاً من السحب البيضاء تسافر متماسكة الأطراف.

يمر عبْر شلج في الشتاء مسيل ضحلٌ، وهو في الربيع والصيف جاحظ العينين، يمكن أن تسميه نهراً، ويمكن أن تقصره على مسيل. هو نهر بخبس متعثراً. وعلى ضفتيه تتناثر بيوت حجرية متباعدة. والطريق الضيق المتعرج يدخل القرية فيتفرع إلى مسالك للمشاة. يدخل الطريق إلى القرية ويخرج منها مفسحاً المجال لاستجمام أهل القرية وإقامة سباقات الخيل. أما سفح المرتفع المقابل فهو مقبرة القرية. وليس بعيداً عنهما المكان الذي تُدار فيه شؤون القرية، وتنعقد الاجتماعات – المؤتمرات.

سألت العجوز التي كانت تتشمس ساندة ذقنها بطرف العصا حفيدها ابن ابنها:

– وماذا يا بغج [النسر الكبير] يدور في القرية بعد مأساة البارحة؟

- الشمس تشرق على القرية، الناس يبكون الميت، وبحر آزوف يتموج، ننتظر حضور أهل جنوة الطليان3
- لا مشكلة إذن...- ظننتك تبحث عن الجهة التي سترمونني فيها في شيخوختي – وابتسمت العحوز في خبث.
- ماذا تقولين! – صرخ بكر مستنكراً ما سمع.

---

[3] في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بدأت إيطاليا، نتيجةَ سلبيةِ الموقف الشركسي تنشر مستعمراتها أكثر مما تفعل أوربا. وهكذا امتدت المستعمرات الإيطالية على ساحل البحر الأسود وبحر آزوف. ووصلوا بتجارتهم آسيا الوسطى والصين قاطعين بلاد الشركس إلى أوربا غرباً. كان معظم النشاط التجاري في ذلك العصر بيد فينيسيا وجنوا على الشاطئ الإيطالي.

على ساحل البحر الأسود شرقاً وبحر آزوف أنشئت أوائل مستعمرات جنوة. كان أواخر التجار افتتحوا في قافا (فيودوسيا) فوسبيرو (كيرش) حيث يمكنهم التوقف للعيش فيها مستعمراتٍ كبيرة: ماتريغا (تامان) وكوبا (سلافيانسك المطل على كوباني) ومالا (أنابه) وكالوسليمن (نوفورسكي) ومافرولاكو (غيلينجيك) وسيباستوبول (سوخوم) وغيرها بحيث يصل المجموع إلى 39 مستوطنة. وكتاب دليل المستعمرات كان يتضمن إعطاءهم "حق الله".

لم تكن أساسات مصانع مستعمرات جنوة متينة. كانت فروع الشراكسة الأديغة تحيط بها. وكانوا يُكنّون العداء لِمن اقتحم عليهم أرضهم. كانت جنوة تتبنى سياسة واضحة لاحتلال أرض الشراكسة: تتدخل في شؤونهم، تؤجج العداء بين الأمراء، وكان تجار جنوة يمارسون نشاطاً سياسياً بالإضافة إلى توسعهم الاقتصادي. في عام 1419 تزوج سيمونو غيزولف من ابنة الأمير الشركسي برزجقوه. ومنذ ذلك الوقت كانت منطقة ماتريغا (تامان) تحت تصرف أسرة غيزولف حتى نهايات القرن الخامس عشر.

عقد القنصل الإيطالي فيليبنو كيافرويا صلحاً مع الأمراء الشراكسة. " يتحقق فيه نفع كبير لتجارنا ". وبعده وطد الحاكم الجنوي كوفالينو كوفالو السلام بين الأمراء الشراكسة بَرَبَق وبَلَزَبق وبَتَرْزَبَق. ولكن كما تشهد الكتابات فإن "الشراكسة الخبثاء كثيراً ما كانوا ينقضون المكتوب والاتفاقات "والتجار الجنويون كانوا يمارسون على الأرض الشركسية كثيراً من الممنوعات. كانوا يسرقون الأولاد والبنات إلى الخارج ويبيعونهم في أسواق ما وراء البحر.

- إن كنت لا تصدق يا عصفوري فاسأل أخاك الأكبر.
- سأسأله، ولكن إن أمرني بفعل هذه المعصية فلن أطيعه.
- اسمع هذا الكلام! – ألقى قرج نظرة استياء على أخيه الأصغر، وسأله: – هل طلبت منك فِعلها أيها التعيس؟!
- لا، ولكن...
- ما هذه ال " لكن "؟ – نَهَر قرج أخاه بكراً بعينين جاحظتين.
- لا تصرخ عليّ! وهل عجيب أن أكون أصغر منك؟.. هل تسمعين يا أم والدنا صراخُه عليّ!
- هو لا يصرخ عليك – أجابت جدته بما لم ينتظره. يتجرّأ عليك فحسبُ. لا تتخاصما في هذه الدنيا الظالمة. لا تنسيا فوارق العمر بينكما. اتّصِفا بالرحمة بينكما.
- وبين الأخ والأخت...

كفّ بكر عن إتمام كلامه بإشارة من رأس أمه.

- اسكتْ! لا تُسمعني كلام من غضب الله عليهم... لو لم يكن إلا ما فعله جَدُّ هؤلاء بي... دعا عليه ألا يغفره الله فدعوت عليه أنا أيضاً... ماذا أقول... عادةٌ كانت في النارتيين أسلافنا هي ما أتكلم عليها. أقصد أن العجوز كان جعلهم يتخلون عن عادة رمي المسنين في الهاوية. سأروي لكم ما رواه لنا جدي: ربما

تحملكم الحكاية على الرأفة بي. كفى، لا تعبسوا، ليس أني لا أحبكم، ولكن مع ذلك...

- عجائز النارت القدامى، ذكوراً وإناثاً، حين يطعنون جداً في السن كانوا يحزمونهم في مهادهم فتعتني بهم الكنائن كما بالأطفال. حين كانت الكنّة الطيبة تهز المهد وهي تغني له "لاي – لاي مهدي، لاي الذهبي جدُّ زوجي"، والكنة السيئة تغني "لاي–لاي جدُّ زوجي، ومن أدعو له أن يموت في المهد هو جدُّه" ومتى صار العجوز ضئيل الحجم أركبوه في سلة وعلقوه بالعمود الصغير. ويقول العجوز "أوثقي رباط السلة بالعمود يا كنة"، وإلا فإننا قوم أرواحنا هشة كانت الكنائن يُنزلن العجوز وقت الطعام من العمود ويطعمنهم، ويتفقدنهم.
- رأى القوم أن "رعاية العجائز كانت تعطل أعمال الكنائن" فقرروا أن يرموهم من على جدار الوادي. وفيما يتّبعون هذه السُّنّة، والناس ليسوا متشابهي القلوب، قرر أحد الشباب الرؤوفين ألا يرمي والده في الوادي فأجلسه فيه، ولم يبخل عليه بالطعام، وبدأ يقوم بخدماته.
- في أحد الأيام سأل الجد حفيده "ماذا في القرية من أخبار؟" "رأى الناس أمس في مائنا جرة ذهبية فعكّروا الماء، بحثوا عنها ولم

يجدوها، فخرجوا من الماء قائلين: ربما خُيِّل إلينا فحسبُ. أكيد أن النارتيين رأوا الجرة في الماء ولكن لم يجدوها" "سأل الجد: "هل هناك قرار بأن الذهب لمن يجده؟" أجاب الحفيد "نعم"
"سأخبرك إذن بما تفعله: الجرة عالقة في غصن الشجرة التي على ضفة النهر. وما يراه الناس في الماء هو خياله. فإن أنزلت الجرة من الشجرة يا ولدي صارت لك" ولما كان كلام العجوز صحيحاً حصل الشاب عليها دون علم أحد.
تعجب الناس كثيراً من طريقة الحصول على جرة الذهب.

حين زار الشابُّ العجوزَ حاملاً إليه الطعام سأله ثانية: "هل وجدت جرة الذهب؟ " أجاب الشاب " نعم وجدتها " ما الخبر الدائر في القرية اليوم؟" " قرروا أن يؤمّروا عليهم أول من يرى شعاع الشمس. حين يخرج النارتيون لرؤية أول شعاع للشمس فما يرونه هي الشمس المشرقة. " إذن اخرج يا ولدي مع هؤلاء من القرية، وقفْ على شاطئ البحر. ومتى رأيت أول شعاع على سطح البحر فقل لهم: لقد أشرقت الشمس"

نفذ الشاب في اليوم التالي كلام العجوز. فتعجب الناس ثانية من فطنته. ونفذوا ما كانوا قرروه. ولما سلّموه الإمارة قال الشاب

للمجتمعين في المؤتمر وهم مستغربون: "شكراً لكم حياكم الله. إن كان فيّ شيء من الذكاء جعلني أهتدي إلى جرة الذهب وأرى أول شعاع للشمس، وإن كان في قلبي شيء من الرأفة فمصدر كل هذا هو جدي. كبارنا خاضوا تجارب كثيرة. ما يلاحظونه كثير، ذكاؤهم متميز. وكل هذا فيه منفعة عظيمة لنا. علينا أن نقدر عقولهم. منذ اليوم أُصدر أمراً يقضي باستثمار خبراتهم وتجاربهم حتى نهاية أعمارهم".

وهكذا زرع في نفوس النارتيين تقدير الكبار واحترامهم.

ظلت ذقن العجوز معتمدة على طرف العصا طوال روايتها للخبر. ولما انتهت نترت رأسها النحيف كمن تريد أن ترمي حية وسألت وعيناها السوداوان تلمعان في محجريهما:

- هل سمعتم أيها الثرثارون أخبار النارت؟ لا يهمني ما تعلقون به. الكلام موجه إليك يا قرج. لماذا أنت جالس كغراب يشعر بالدفء وكتفاك متهدلتان؟ لماذا جئت بمنحوسَي آل جراجه فلفتَّ إليهما الأنظار فتسببت في المأساة التي جرت؟
- لستُ أنا... – قال مشيراً إلى أخيه الأصغر دون أن يذكر اسمه — اسأل هذا!

- أنا أعرف منذ زمن بعيد ما يعرفه هذا الذي تشير إليه. أنت من أسألُه.
- سأخبرك متى رجعت لأني في طريقي إلى مكان ما.
- طلبت منك التوقف! أدرْ ظهرك أيها المنحوس! خذ معك هذا إلى حيث تذهب! يا للعجب، ظهرك كأنه قُدّ من صخر. آلمتَ معصمي. وأنت لماذا تبتسم، لا خلع الله مبسمك – تهاجم بكراً ثم تلاطفه. – هيا يا ولدي اسقني من الماء البارد. – تذوقتْ من الماء وقالت له: أدعو لك يا ولدي إلهَنا الكبير الشمس أن يحبك الناس ويدللوك طوال عمرك كما الماء البارد الذي سقيتَني منه. أتأمل منها أن تسمعني لأنْ لا إله كبيراً لي غيرها. لا أنفي أني أحزن لأخيك الأكبر. ليس لي غيرُكما في هذه الدنيا المضيئة – المظلمة. أعاتبكما أحياناً من فورة قلبي، لا تؤاخذاني إن فعلت مثل هذا أحياناً. ليس أكثر من "فشّة خلق"، قائمة البقرة لا تقتل عجلاً. ماذا بيدنا؟ فيمَ نحن أحرار: نحن في الدنيا التي يقال فيها: المسنون يرحلون والشباب يأتون. ثم همست لنفسها بصوت منكسر: – ماذا كان يجري لو عاش المسنون والشباب معاً في العالم؟

- لو حدث هذا يا أمي ألستِ من تقولين "المسن يرحل، والشاب يبقى"؟
- لست من قال هذا بل جدك "زَيْزَرَح".
- لا أتذكر جدي.
- من حسن حظك أنك لا تتذكره... هو الآخر ممن لم يسعدوني. صمم أن يحج فجاءني خبره غارقاً في رمل مصر. ووالدكم السوّاح هاري الأحذية لم يكن أحسن منه. لا مشكلة فيهما. ما الفائدة أن نصدع رؤوسنا بماضٍ لن يعود. اسمعني في موضوع آخر: أخوك الأكبر الذي لم يتزوج إلى الآن فيفوته القطار، لماذا عينه على ابنة أسرة جراجه التي دعوتُ عليها بالشر فوقع دعائي عليها، اسأله باسمي، أنا التي ربّتكما، ولا تكتمني الجواب.
- ومن أين لي أن أعرف... أعرف أنه دعاهم إلى سباق الخيل.
- هذا لم يعد سراً على أبناء القرية. أخبروني في المأتم حتى كادوا يقلعون عيني به. لا تفزع! وجدت ما أجيبهم به. ولكن ما قالوه لي جعل شعر رأسي ينتصب. لا تُدر أنفك. سمعت أنه يحاول أن يجعل من كاترينا الشيطانة بنت الأسرة التي يحمل ربُّها اسماً مسيحياً: جراجه، كنّة لي. إن فعل أخوك الأكبر هذا بي فسأمحوه من وجه الأرض. قل لي ماذا تعرف وإلا ألحقتك به. لا

تتوقع أني لا أعرف أسرارك التي تحتفظ بها في بئر عميقة. كيف أنتما الاثنان في الوقت الذي أُشرف فيه عليكما – قالت العجوز وقد أمسكت إحدى عصويها، ورفعت يديها النحيلتين نحو إلهها العظيم الشمس، – كيف سمحتما لتلك الشيطانة زرقاء العينين أن تسحركما.

كانت الكلمات المرة التي سمعها بكر – وهو أكبر من كاترين بعام – جعلت بكراً ينكمش على نفسه. ومع ذلك فقد حدّث نفسه وهو يعود إلى وعيه: " من أين تعرف هذه ما يختلج في قلبي؟.. أتكون مارست عليّ السحر. ليس في عيون تلك الفتاة التي لا يغيب فرح عينيها عن نظراتي شيء من خبث الشيطان. إنها إنسانة طيبة حلوة الكلام، تربي أخاها الصغير كأنها أمّ. ولكني أرى أن لأخي هوى في كاترين. أنا لم أبُح بسري لأحد. هذا سري أنا وحدي..."

- ما الذي يتعثر به لسانك يا عصفوري؟ – سألت الجدة الآن بكراً بلهجة ألطف. وأضافت وكأنها تمازحه – وهل تفكر في أنك ستطير وراء البحر الدافئ؟ لا تهتم، لابد ستلحق بهذا.
- لا أعرف بمَ أرد على سؤالك... ولكني سأقول لك ما أعرفه بخصوص كاترين ولوبلان.
- وما شأني بهذا الأقطع الذي جئت على ذِكره؟

- أنت تُذنبين بحق لوبلان.
- لا تحاول تربيتي. وقع دعائي عليه. من أقصده هو ذاك الشيطان اللعين. – وقبل أن يكمل بكر حديثه قال للمرأة الجارة العجوز التي ظهرت تدخل الباب ولو أنه ليس مشتاقاً لحضورها:
- تفضلي يا لاشِن، تفضلي. اجلسي سواءٌ كنت مرتاحة القلب أم غير مرتاحة.
- لماذا يا غُشَفِج لا يكون قلبي صافياً؟ أنا في صحة جيدة، وعلى رِجليّ إن شاء الله العليّ. وأنتِ كيف حالك؟ أنظر إليك فأرى بياض وجهك يشهد على صحة اسمك[4].
- حقاً هذا صحيح. إلهكم الذي تصفينه يعيش بفضل إلهنا الكبير، يسمح لكم أن تعيشوا دون أن يحمل عليكم. يجعلكم تتقبلون الإسلام بدلاً من المسيحية التي كانت دينكم التي لم أتقبلها.
- نعم، نعم يا غُشَفج... أين نذهب تاركين الأديغة الذين ننتمي إليهم. ما يفعله الأديغة نفعله.

[4] حاشية من المترجم: الاسم يعني المرأة البيضاء

- أنا ألستُ أديغياً؟ أنا عجوز أديغية... لا أسمح لنفسي أن أنسى إلهنا الشمس الكبرى. أنت تعرفين ما حدث لآل جراجة أنصاف النبلاء الذين كانت المسيحية ديانتهم. انتكبت الأسرة كلها من الصاعقة. ومن تركوا وراءهم ينتظرهم المصير نفسه.
- في مثل هذا الموضوع يا غشفج – وليحمني إلهي – لا أستطيع موافقتك. انسَي عداءك لآل جراجه وأنت إحدى قدميك في القبر، وتوبي إلى ربك!
- أي شيخوخة وأي توبة؟! – أسرعت العجوز بالرد وهي تعبث بعصا التين التي تسند بها ذقنها– لا تصدعي رأسي. الأديغة النارتيون بما أنهم طويلو الأعمار فأنا أريد أن أرى خير أولادي الذين لا يسمعون الكلمة. هذا الذي كنت تعرفينه... – حين انزلق اسم جراجه قلوباته إلى لسانها ارتجف بكر لرؤياها تتلعثم، فسأل الجارة العجوز: – الأفضل من كل هذا أن تعرّفينا ما الذي بيدك.
- ما أحمله، يا من أدعو له الله الكبير العلي أن يطيب خاطره هو بَرَكُ الصباح. جئت به كي تذوقوا منه، لا أحرمكم منه.
- حياك الله، سنتذوق معروفك بطيبة خاطر. وبعدما تناولوا البرك قالت غشفج لبكر: – انصرف يا عصفوري إلى أشغالك. دع

حصانك يتنزه. خالِطْ أصدقاءك وأقرانك. نحن سنتشمس؛ وهل قليلٌ ما لدينا لنتحدث به؟! ولما انفردت العجوزان تعكر مزاج غشفج على غير عادتها فأكملت: – ها هي المصائب التي حلت بنا، ليست قليلة. وما عانيناه أكثر. يا حسرتي، يا حسرتي! كيف ترى الخير حين تتزوجين ممن لا تحبين... كنت أموت حباً في قلوبات، أنتظر منه أن نؤسسَ أسرة مزيحةً من يغازلونني حتى بقيت دون خُطّاب، فوجب علي أن أؤسس أسرة مع أول من ظهر في ساحتي وهو من أربي له هذين الولدين. وما كاد أول ولد يبلغ الخامسة حتى تركني الرجل الذي لم أحبه في إحدى الليالي في الفراش، ورحل إلى حيث لا أعرف ولم يعد إلى الآن. ومن يعرف ما جرى له هو إلهنا الكبير الشمس. وكلما نظرت إلى الولد الوحيد الذي تركه لي ذكّرني بالرجل والده الذي لم يسكن قلبي، فما العمل؟ أليس الولد من دمي " ألم ألده؟ ألم أُربّه؟ فتحت له أسرة. وهو الآخر دمر حياتي كما فعل أبوه ولم يُسعدني. هو الآخر غرق في نهر بشزه وهو عائد من قُوابه المنحوسة. لما أعادوه إلي ... ما الفائدة في أن أحكي لك قصته وأنت تعرفينها: شنقت زوجته نفسها لرهافة حسِّها على شجرة الخوخ البري وراء البيت حزناً على زوجها. وبين الولدين اللذين

بقيا لي منهم لم يحمل أحد منهما شيئاً من ابني ولا كنتي، بل ليس فيهم شيء من جدهما من حسن حظي.

- يا للقرف! ماذا تقولين؟ تجعلينني أتوجس الشر! — حتى لو لم تكن لاشِن تسمع هذه المعلومات لأول مرة، قالت هذا الكلام بوجه مرتعب.
- كفاك تصنعاً... وهل هناك إنسان لم يتعب ولم يشقَ؟! وأنا أصنف نفسي بينهم. وسأقول لك شيئاً آخر: قلوبات السيء الحظ الذي كرهته ولم يمد يداً واحدة إليّ أرى في الولدين، أمليّ في الحياة، شيئاً من طباعه.
- حقاً، يا غشفج حقاً، حبك الأول سامك الكثير من العذاب... ونحن ليس قليلاً ما عانيناه ولكني أتعجب من نجاتك من مآسيك الكثيرة...
- تجاوزت هذه الصعاب لأني امرأة قوية، ولأن إلهنا الشمس القوية ساندني.
- هذا صحيح يا غشفج، نعم الله العلي العزيز، ألست أديغية، لن يتخلى عنك. سيضمك برعايته. سأنصرف إلى بيتي إذن، ديوكي الرومية ما تزال بلا طعام، أسمع نداءاتها.

- نعم، نعم. لو لم تكن دجاجاتك جائعة لتحدثنا في أمور كثيرة أخرى. أنت الوحيدة التي أشرح لها صدري يا لا شِن. أصبحتُ هشّة في شأن جراجه قلوبات. أملي فيك أن يبقى ما دار بيننا من حديث سراً بيننا. لا أريد أن أدخل في أفواه الأشرار.
- – ما بك حاجة إلى أن تقولي لي هذا... — قالت لاشن في سرها " لا أظن أن في القرية أحداً لا يعرفها ". ثم طمأنت جارتها: ثقي بي!
- لولا ثقتي بك لما جعلت من جارتي الطيبة مستودع أسراري... — قالت إثر غشفج، وغمغمت وراءها: – وأنت لست امرأة موثوقة.

الفصل الثالث

أول شهر من الخريف

ساحل بحر آزوف

شمس مطلع الخريف الناعمة في كبد السماء. ومن بعيد تظهر قمة جبل بيباو التي تلبس قبعةَ راعي غنم بيضاءَ مكسوةً بالثلج. أمواج بحر آزوف اللعوبة تتسابق، فيلحق بعضُها بما أمامها وتتأخر أخرى. — والشباب الثلاثة: كاترين ولوبلان وبكر يتراكضون إلى الجانب غير

العالي. وحين يلامس ماء البحر البارد أرجلهم يسحبونها بسرعة. يتصايحون ويتضاحكون. والأحصنة المئتان التي ترعى غير بعيد تراقب بحثاً عن مصدر الصوت. أحدها يمد رأسه في الهواء فيحمحم، والأخرى تستأنف الرعي على حافة الماء غير عابئة بما تسمع. والهواء الرقيق يقفز فوق أطراف الأعشاب، ثم يخفي نفسه في عمق الغابة. والغمامة الوحيدة التائهة متلهفة على الوصول إلى مغرب الشمس، إلى مدينة قافا الإيطالية جهة جنوة.

يخرج نهر بخبس من مضيق قرية شلج مثل حصان هائج يجري بلا هدف، لاطماً صهوات أمواجه بالضفتين، فيرى البحر الذي ليس صاحبَه، فيتظاهر بالوقوف خائفاً... ثم يغامر فيعود إلى الجبل الذي خرج منه دون أن يلتفت إلى ما قطعه.

قال لوبلان الذي كان ينظر في ذلك الاتجاه متجمد العينين:

- أُشفق على "بخبس"
- لماذا؟ سأل بكر.
- بخبس الذي هو تجمُّعُ مياه شرب نظيفة يتسخ في بحر آزوف.
- هذا هو السبب إذن؟ – حكم بكر بينه وبين نفسه على ما سمع بأن لا قيمة له، وكتم خُطور أخيه الكبير قرج على سوء.

- وماء نهر بخبس ليس نظيفاً دائماً...– قالت كاترين التي كانت تنظر في الاتجاه الآخر من البحر دون أن تغيّر نظرتها، ثم أضافت: – لولا السواقي التي ترفد البحر ومياه الأمطار لتحول إلى مستنقع. نهر بشزه يصب في بحر آزوف من جهة تومتقاش، ومن الجهة الأخرى يصب نهر تانه. وهو يلتقي بالبحر الأسود عن طريق بحر آزوف.
- صحيح يا كاترين، صحيح، – قال بكر راضياً.
- من أين تعرف هذا؟ – سأل لوبلان مستغرباً ما يعرف بكر.
- سمعت قرج يروي هذا. وسأحكي لكم شيئاً آخر: مدينة قافا التابعة لجنوة تقع في هذا الاتجاه.
- وأبعدَ من هذا تقع عاصمة بيزنطة، لن أتذكر اسمها، تقع على الجانب الآخر للبحر الأسود. – أضاف الصديق الأكبر للوبلان هذه المعلومة.
- اسمها القسطنطينية، – ذكّرت كاترينا أخاها الاسم.

سأل بكر ثانية الأخ والأخت مستغرباً:

- ومن أين تعرفان هذا؟
- حقاً لم يكن عندنا أخ كبير يعلمنا إياها ولكن كان عندنا والدنا – أجابت كاترين بكراً.

تبادل الثلاثة النظرات إثر سماعهم صوت همحمة حصان بكر. تعرفوا على قرج الذي كان يجري بخيله بلا مبالاة. قال لهم الوافد دون أن يترجل عن الحصان:

- انظر إلى هذه الشلة! ماذا تفعلون هنا؟

أجاب لوبلان الفارس دون أن تطرف له عين:

- سنخبرك بما نعمل هنا ولو أنك أهنت أصلك الأديغي بطريقة امتطائك الحصان.
- الأسوأ مني هو من يعرف الكثير ولا يراعي كونه الأصغر عمراً. كان الأفضل أن تدعوني إلى الدخول ممسكاً بعنان حصاني.
- وسأحقق لك هذا.
- الآن أرضيتني. أغفر لك قلة فطنتك. أكرر سؤالي: ماذا تفعلون هنا؟
- إن كان مزاجك حسناً فتفضل الآن.
- وكيف أكون معكَّر المزاج في هذه الطبيعة الجميلة؟.. — قال قرج ثم سأل كاترين بنبرة أخرى: – وهل هذا البيت من عرق جبينكم حتى تدعيني للدخول يا بنت آل جراجه؟
- نستقبلك على طول الساحل لأنه أرض للأديغة.

- هكذا ترى؟.. ومع ذلك كنت أريد أن أعرف ماذا تفعلون هنا.

قطع بكر كلام كاترين لا يطيق كلام قرج وطبعه وتصرفاته:

- كما قلت يا كبيرُ نهارُنا جميل، نتأمل البحر الهادئ، ونتفحص السماء المرتاحة.
- لستَ أيها الثرثار من أسأله – نَهَرَ قرجُ الأصغرَ منه والذي لا يوده. – هيا عد إلى البيت وكسِّر الحطب لجدتك.
- الحطب المكسور يملأ المَجففة.
- ألستَ من أمرته بالعودة إلى البيت قبل أن أكسر رأسك! – ثم لاطف لوبلان بنبرة أرق: – إذا أردت سآمره أن يحملك على ظهره إلى بيتكم. نحن، كاترين وأنا، سنرعى خيولنا، ونتحادث، ما رأيك أنت يا كاترين؟
- لا، لا – نظرت كاترين بعينين ذاهلتين إلى لوبلان وبكر اللذين كانا ينتظران جوابها. – لا تأخذ عنا هذه الفكرة، لسنا بلا بيوت.
- لن أسمح لك أن تفعل هذا! – أمسك لوبلان يد كاترين وأبعدها، ثم ركبا حصانهما.

بعدما مشيا بعض الوقت التفتا فرأيا بكر يجري بالحصان إلى القرية.

وبقي قرج الجسيم وحيداً على الشاطئ.

الفصل الرابع

المكان: شلج

الزمان: النهار وقد اقترب المساء

حين ركّبوا المدخنة الحمراء كانت الشمس قد غربت نحو بيزنطة، واستقرت. وشرع الظلام يهيمن شيئاً فشيئاً على الأرض. ولولا ألعاب الصبيان والصبايا وضجيجهم، وخوار الأبقار العائدة من المراعي، وعواء بضعة كلاب لقلت إن شلج تدخل عالم الصمت شيئاً فشيئاً. مواشي آل جراجة هي العنزات العنيدة التي تتدلى منها أذنان طويلتان، والتي تقود بضعة خراف، وحصان وحيد، تستريح الآن في الحظيرة.

والكلب الملون الذي سماه لوبلان وهو في الخامسة من العمر باسم كَج قاعدٌ على قائمتيه الخلفيتين، ناصباً أذنيه يحتل وحده الساحة الخلفية للدار.

والنجوم المعدودة تهجم على السماء الصافية كأنها تلعب لعبة "الطميمة". والغربان الليلية تبعث أصواتُها الرعبَ غيرَ بعيدة عن بيت

جراجه. وغير بعيد يصدح صوت المؤذن ماجُخ الحادّ من الجامع الذي أسسوه من قبيل التنافس، وغطوا سطحه بالقصب.

غمغم لوبلان الذي كان يشعل نار الموقد:

- بدأنا بالصياح والصخب الآن.
- لا تقل هذا، سيعتب عليك من اعتنقوا الإسلام.
- وهل يسمعني هؤلاء؟
- حتى لو لم يسمعك هؤلاء فقد يسمعني والدنا وأمنا الميالان للدين الجديد من بين هؤلاء.
- هذا قصدك؟ – قال لوبلان واختتم بما لم تتوقعه كاترين البتة: – ربما كان هذا ما لا يغفره لهم إله الرعد العظيم... وأنت دعيهم يغيروا اسمك المسيحي. أخشى أن يؤذيك آلهة آل قرج الكثيرون كما آذوني أنا.
- يا لوبلان! — التفتت كاترين التي كانت تفرش لأخيها فزعةً، ثم لاطفته كما تفعل الأمهات: – كم نصحتك أن تحتفظ في قلبك بالخير، وأن لا تفكر بالسوء. مَن في قلبه الخير يلقَه أمامه. الخير والشر متجاوران في الدنيا حقاً ولكن الخير أكثر ولذا سينتصر

على الشر كما كانت أمنا تقول لنا. ولاشِن التي ترعانا تقول هذا أيضاً.

- ولكن ما تقوله جدةُ بكر وقرج شيء آخر. ما تقوله بشأننا يبعث فيّ الخوف... ولكن هل تعرفين ما سأقوله لك يا كاترين؟ إنه الفرق بين الأخوين. بكر بالقياس إلى أخيه الأكبر وجدته إنساناً طيباً شفيقاً.
- كل من على الأرض مختلفون في لغاتهم وأنماط حياتهم وطرائق ضحكهم، وغضبهم – قالت كاترين على مهلها ودون قلق. – لم تكن الدنيا عجيبة لولا أننا، أنا وأنت، اللذان من أب واحد وأم واحدة نختلف أحياناً. ولكن هذا لا يعني أننا لا يجري في عروقنا دم واحد.

الهم الذي كان ينغص على لوبان أفصح عن نفسه بنفسه:

- ولكن، لما كنت ذات غطاء رأس؛ ماذا إن بقيتُ في البيت وحدي؟!

ضحكت كاترين وهي تزداد جمالاً على جمال، وأسنانها البيض تلمع، وقالت:

- يا لوبلان، يا أخي الغالي هل نسيت ما كان أبونا وأمنا يقولان؟ الولد دائماً مُضيف، والبنت ضيفة من أسرة أخرى حين تؤسس أسرة. تصبح ربةَ بيت الأسرة الجديدة. ولكن كما تقول لاشن لن أفعل هذا ولو ظهر لي من جهة الجنة عريس ينوء بالذهب، ولن يظهر في دنيانا من يحملني على فِعل هذا.

كان لوبلان يسره ما يسمع ولكنه لام أخته وهو يفترش ما جهزته أخته له:

- لماذا قلتِ لِقرج ونحن على الشاطئ " ونحن لسنا بدون بيت "؟
- اسمع ما يلومني أخي الأصغر لأجله؟ – خاطبت كاترين نفسها وهي متجهة إلى فراشها.
- لم أعيّرك به، أقول لك لأني لم أعرف ما وراءه.
- دفعني على قولي كوني أديغة، لا من قلبي.
- حسنٌ إذن. – سأل لو بلان أخته: من مِنا الآن دوره في الحكاية؟
- أنا، هل نسيت؟ اسمع إذن، إلا إن كانت ستبعث فيك الملل لطولها.
- هذا يتوقف على طريقة روايتك يا كاترين.

- وسيتوقف على إصغائك أنت، – ردت كاترين على مزحة أخيها بمثلها، وبدأت تروي الحكاية. – في قرية لا هي أكبر من قريتنا شلج ولا هي أصغر، يسمونها يَسْتَم كان يعيش عجوز عمره مئة عام. كان للعجوز ثلاثة أبناء وبنت وحيدة. حين جاءه مرض الأجل قال لأبنائه: " نفِّذوا ما أقول لكم لأني منصرف عن الدنيا قريباً. ستكون ليلة وفاتي مظلمة. في تلك الليلة إذا توقف فارس على باب دارنا، زوّجوه من أختكم دَنا غُ، واصرفوه ".

توفي العجوز كما توقّع، ولما نادى فارس في الليل قال أول من سمعه وهو الأصغر من إخوته: " وصلنا إلى الموقف الذي ننفذ فيه وصية والدنا ". قال أخواه " وهل نزوج أختنا من رجل لا نعرف أصله بناء على هلوسة والدنا ليلة وفاته؟ ". لم يقبل الأصغر ما سمع من أخويه: " سأحقق ما طلب منا والدنا ومن يعترض طريقي فسأقاومه "، فأعطى أخته لفارس الليل، ونام.

- هل يجوز أن تقدم أختك باليد إلى من لا تعرف شيئاً عنه!.. غمغم لوبلان.

ابتسمت كاترين لِما سمعت، وأكملت حكايتها:

حين طلع الفجر لم ير الأخوان الأكبران أختهما في البيت. لم يعد عندهم من يطبخ، ومن يرتب البيت ومن يغسل ومن يرفو الثياب، بل من يكنس أرض الغرفة إن لزم. لام الأخوان الأكبران أصغرهما بحجة أنه حرمهما من صاحبة كل هذه الخدمات. فكلفوه بالخدمات الضرورية للبيت. وفيما هو في هذه الحالة من التعب ركب حصانه وقرر زيارة أخته ليعرف ما آلت إليه حالها.

سأل في الناحية التي كان يعيش فيها الإخوة الثلاثة. وبحث هنا وهناك، لم يجدها. وصل إلى تومتقاش وقوابه، وتجاوزهما وأبعد في رحلته، وعبر الجبال، وقطع الأنهار واجتاز البراري.

– ألم يعبر البحر الأسود وبحر آزوف؟ سأل لو بلان أيضاً.

كان ينوي عبورهما ولكنه قال في نفسه: ما الفائدة من البحث بين أناس لا أعرف لغتهم ولا طبائعهم؟ فظل يبحث في البلاد حتى تعب ونفِد زاده وتملكه اليأس. فلما رأى بيتاً أكبر من بيته أمِل ان يُطعموه شيئاً فيه فدخل إليه. رأى على الموقد المرأة التي تقلي شيئاً بالسمن، وما إن ألقى نظرة على ظهرها حتى اكتشف فيها أخته. تعانقا عناق المحبة والسرور. وفيما تقدم هي وجبة الغداء دخل رجل يحمل على ظهره قرابة سبعة أحمال عربةٍ حطباً، ثم ألقى حمله مزلزلاً الأرض،

راجّاً البيت. ولما دخل الغرفة انحنى بقدر إصبع رِجل على الرجل الضيف، ووقف على رأسه.

- لماذا تتأمل ضيفك إلى هذا الحد؟.. هذا ولدته أمي أصغر إخوتي الأكبر مني الثلاثة الذي أعطاك إياي في تلك الليلة.
- ماذا أقول يا أخت النارتيين الثلاثة؟ أنا مجرد متوعك.

نظرت دَكَناغوه بقلق إلى زوجها.

- ماذا جرى لك هل من خطر حرب أو ما شابه؟

تظاهر الرجل أنه لم يسمع.

- ماذا تقول يا صهري! هل يمكن لأحد العمالقة أن يخطف لَتَناي ابنة النارتيين الجميلة — استدار نحو الشاب.
- ارجعْ يا قريبي. كنا تابعناها، نحن من رجال النارت المعدودين وأنا منهم، ولكن لم ننجح في شيء. استدر أرجوك من كل قلبي، لن تقدر عليه.
- سأقتل من يخطفها، وأستعيد من يحملونها " قال أصغر الإخوة الثلاثة، وركب حالاً. بعدما مشى الشاب كثيراً دنا من بيت مبني بأحجار كبيرة جداً، ومسوَّر بمثلها. لم يكن من الممكن الدخول إلى الدار ولا النظر إلى داخلها، فعلق بحبله صخرة كبيرة

ورماها إلى الدار. ودخل بصعوبة فائقة وهو يسيل عرقاً. ولما دخل البيت، وسأل المرأة الجالسة غارقة في أفكارها: من أنتِ؟ "أيُّ نحْسٍ جاء بك إلى هنا؟ يا حسرتي ماذا تريد وعمّن تبحث؟ العملاق الذي حملني وحملك لن يشفق علينا البتة. هيا عد إلى حيث خرجت". قلقت لتناي على الشاب.

- "لا تجفلي! هذ الذي تأتين على ذكرة لن يستطيع أن يفعل شيئاً. وأنتِ لن أسمح له أن يهينك. أنا عندي لك رجاء واحد: حين يستيقظ العملاق اسأليه عن مصدر حصانه المسمى "جاق".

حين استيقظ العملاق، وبدأ في طعامه وشرابه، سألته لتناي متوددة: " حصانك جاق العجيب الذي كل الدنيا تحت أمره من أين جئت به؟ ". والعملاق المرائي تصنّعَ الجواب وقد سرَّه ما قيل له: " سيصل إلى إيتام – تكُج، ودولاب غزل الصوف دولابه الجني، ويمضي إلى المرأة العجوز نَغُجته ويبقى ثلاث ليالٍ يرعى خيلها، ويحصِّل حصاناً ممتازاً مثل حصاني فإن توقعت أن يعيدك العملاق فأنت مجنون!" قال طباخُه وخادم بيته باسماً للتناي.

حين أطلعت لتناي الجميلة الشابَ على الخبر ركب إلى الجهة التي شرحها العملاق:

- هل تستمع إليّ؟ سألت كاترين أخاها الذي ظل صامتاً.
- طبعاً أصغي... أليس لهذا الشاب اسمٌ؟
- ألم أقل اسمه؟ أشمز اسمه. واسم أخويه الأكبرين؟

قطع لوبلان ما كانت ترويه أخته:

-الاثنان الآخران ليس من الضروري أن تذكري اسميهما، لا فائدة لي فيهما.

- أشمز هذا من بين الذين كنت تود معرفة أسمائهم ظل يمشي ويمشي حتى رأى نسراً من نوع ياستريب روسياً يطارد عصفورةً صغيرةً. انقضت العصفورة المهددة إلى الأسفل واختبأت في عُرف حصان أشمز. قال العصفورة شكراً حافظت على حياتي. تذكّرْني حين تجد نفسك في يوم ضيق، وأنا سأفيدك وقتها "أجاب أشمز العصفورة: "إن شاء الله لن أحتاج إلى مساعدتك، طِرْ على راحتك، أطال الله عمرك".
- وبعدما مشى يومين صادف سمكة كبيرة تتلوى وسط مستنقع ضحل. فتوقف عندها، وألقاها في النهر. "شكراً أيها الرجل الرحيم. هديتني إلى موطني. إن وجدت نفسك في ضائقة

ساعدتك " قال أشمز في إثر السمكة التي وقعت في مهلكة:" لا أحوجني الله إلى مساعدتك، افرحْ بأن لقيت نهرك ".

- بعدما مشى أشمز أيضاً قرابة نصف شهر التقى بذئب يائس واقع في خندق لا يستطيع الخروج منه. ولما أطلق أشمز سراحه دعا إلى الله لأجله: " أيها الرجل الطيب ساعدتني حين وقعت في ضيق، وأنا، من يدري، سأساعدك في مثل ما وقعتُ فيه " قال أشمز: " هيا أيها الذئب إلى جرائك، لا أطمع في منفعة منك بقدر ما أرجو أن أتجنب شرّك"

الآن لم يعد لوبلان يتحمل ما كان يشغل فكره:

- أرى في أشمز نوعاً من الغرور لا يليق به.
- وهل هناك أحدٌ ليس فيه شيء من الغرور والتصنع؟!-

ضحكت كاترين – لا يسأل المرء إن كان ما سيفعله ممكناً أم مستحيلاً.، ولكنه يندم بعد أن يفعله. أنا لا أزعم أن كل الناس يتصفون بهذه الصفة. ولكن لا أستطيع أن أقول إن كل الناس يخلون من مثل هذا الطبع وأشباهه... إلى أين وصلتُ في سردي؟... وهكذا ظل أشمز يسير ويسير، وعجلة الأسطورة تغزل الصوف وراءه، حتى رأى عجوز الأسطورة القبيحة التي تتدلى من قفاها أشغالها، تسلل إليها قائلاً أنت أمي وأبي، ولمس

بفمه أحد ثدييها. ارتعدت العجوز وقالت "أدعو إلى الله أن يقلع العينين اللتين لم ترياك أيها الولد المنحوس، من أين أتيت؟" "لا تنهريني يا أمنا، أنا جئتك راعيَ خيل" "وهل أنت راعي خيل جيد. إذا استطعت أن ترعى خيلي ثلاثة أيام دون أن تضيع منك، لأنها ستلد ثلاثة مهور في اليوم الثالث، سأخيّرك بينها وأعطيك إياه. وإن لم تحافظ عليها فأنا أعلم بما أفعل بك" "سنرى يا أمنا" – أشمز رضخ لطلبات العجوز.

- طبخت العجوز عصيدة بالحليب وأطعمت أشمز. وفي الليل أركبته العربة التي تجرها أربعة خيول، وساقتها إلى المرعى. وتركته حارساً عليها. كان أشمز قد تعب على الطريق فغلب عليه النعاس فنام. جفل من نومه وفيما هو يبحث عن الدواب اقترب من الشاطئ سألته تلك السمكة التي كان قد أنقذها: "ما الذي جرى لك؟" "كنت أرعى للعجوز الساحرة فغلبني النعاس فضاع مني القطيع. إن لم أجده فقد ساءت حالتي. قالت السمكة: "لا تحزن من أجل القطيع، رأيته تحت الماء، سأعود به لأجلك في الحال".

- عاد أشمز بالقطيع إلى المرعى. ولما وصلت العجوز عند الفجر متكئة على الأرجوحة تعجبت مما ترى. "ما أحسنك يا ولدي، هذه ليلة وانقضت".
- وفي الليلة التالية، وفيما أشمز ينتظر القطيع، استغرق في النوم هذه المرة أيضاً، وضاع منه القطيع. وفيما العصفورة التي كان أنقذها تقفز لاهبة انتبهت إليه فسألته: "ماذا جرى لك؟ أراك مهموماً" قال: "رأيت قطيع العجوز قبل لحظة يطير إلى السماء" قالت العصفورة: "رأيت هذا وأنا سأنزل به، فلا تهتم إن لم يكن عندك همٌّ غيره، كان الله في عونك". امتدحت العجوز راعي قطيعها "أحسنت يا ولدي، وهذه ليلة أخرى انقضت".
- وفي الليلة الثالثة نعس أشمز مرة أخرى، فاختفى القطيع. وفيما يبحث في الأماكن القريبة ثم البعيدة سأله الذئب الذي سبق أن أنقذه، قال الذئب: "ماذا جرى لك حتى فقدت لون وجهك؟" قال أشمز "أبحث عن القطيع الذي فقدته الليلة" قال الذئب "وهل هذه مشكلة؟ افرح بسلامتك أنت، أنا رأيت القطيع بين أدغال الغابة، سأعود به حالاً".
- لما رأت العجوز راعيها أشمز قالت له: "تبيّن أنك رجل حقاً يا ولدي صمدتَ الليالي الثلاث؛ فكما وعدتك، ولدت لي ثلاثة

مهور، اختر من بينها ما تريد. اثنان منها جميلان جداً، أما الثالث فهزيل سيعذبك ريثما يمكنك ركوبه. ولن يريحك." قال أشمز "يا أمنا أنا إنسان من عامة الناس، مجرد راعٍ، هذان المهران الجميلان لن يصلحا لي حصانَ ركوب، ولن أستطيع رعايتهما. يسعدني أن تعطيني المهر الهزيل بينها". قالت: "هذا غير ممكن يا ولدي؛ لا تجعل الناس يقولون عني: بعدما قطع هذا الشاب كل هذه البلدان والمخاطر، رعى للعجوز، فلم يحصل إلا على هذا المهر السقيم، مبروك عليك أحد هذين المهرين السليمين، حلوٌ لك وثواب لي يا ولدي" "كنت وعدتني يا أمي أن تعطيني ما أختار فأنا أختار هذا المهر الهزيل، وحلال عليك الآخران". "ليكن نافعاً لك إذن. خذه ومع السلامة".

- وفيما أشمز عائد والمهر مربوط إلى الحصان قال له المهر الهزيل: "أنا لم تلد أمي إلا مهراً واحداً غيري، واسم هذا المهر "جاق"؛ إن كانت لك حاجة حيث يعيش ونحن في طريقنا إليه فأنا لست كفواً له في القوة، وهذا سبب حديثي إليك". "عرفتَني. كيف تصبح مكافئاً لجاق الذي ولدته أمك؟". "أمس فحسب جئتُ إلى الدنيا لم أذق حليب أمي إلا مرة واحدة، في حين شربَ جاق من حليب أمي مرتين. إن كنت تثق بي فسأعود

وأتذوق حليب أمي مرة أخرى دون علم العجوز لأصبح مكافئاً لأخي، ثم أعود إليك ". أسرع المهر النحيل إلى أمه وحقق طلبه. وحقق نارت لأشمز ما وعد به لتناي. استغل أشمز فترة استراحة العملاق، وأركبَ لتناي الجميلة على الحصان في حضنه، واتخذ طريقه. كان الحصان الهزيل الذي يركبه أشمز ولتناي مستعداً أن يعود إلى بلاده بجولة واحدة، ولكنه لا يريد أن يقول الناس إن الفتاة التي خُطِفت عادت إلى أهلها. يجري أشمز بالحصان وهو يحاول تحريض العملاق على الركض معه فيظل أشمز ينظر إلى الوراء، وهكذا يصل إلى بيته دون استعجال.

- حسنٌ أن يتزوج من لتناي الجميلة. — تمتم لوبلان ثانية — ما أخبار أخته دَخَناغوه، وما أخبار صهره الجميل...
- وهذان لابد أن يردا في حكايتي، سيجدان مكانهما المناسب فيها – طمأنت كاترين أخاها واستأنفت حكايتها: – حين صحا العملاق لم ير لتناي في الغرفة فأسرع إلى الإسطبل الذي يُؤوي إليه حصانه جاق."يا جاق، يا جاق، جاق العروس الجميلة التي كنت أُمنّي النفس فيها هجرت الغرفة. أظن أنهم استرجعوها إلى البلاد التي حملتُها منها" "إن كانوا استرجعوها ما كان يحق لك أن تأكل وتشرب هنياً وتنام إن لم يكن عندك غيرُ

هذا الكلام." "إن شاء الله تأكل الطيور عينيك إن لم يكن عندك يا جاق البليد، وتأكلك الذئاب، ويصبح عظمك المطحون غذاء للأسماك" – قال العملاق وصفع وجه حصانه بعصاً من الحديد، ثم وجّهه إلى حيث كانت تُسمع أصوات العائدين بلتناي.

- رأى أشمزُ العملاقَ الذي يلاحقه فابتسم وخفف من سرعة حصانه بدلاً من زيادتها. والحصان جاق الذي كانوا يقيدونه بالحديد نادى الحصان الهزيل الصغير يائساً: "كيف تسمح لهذا الراكب عليّ أن يُهلكني من التعب وأنا ابن أمي؟!" والشيطان الصغير يرد على من خلفه "إن لم تكن راغباً في أن يقتلك راكبك فتصنَّع عثرة يجد بها جزاء شروره وتأتي بها على أجله" ولما تصنّع جاق العثرة سقط العملاق كجلمود صخر. والسيف الذي سقط منه التقطه أشمز وقطع به رأس العملاق.
- لما انطلق أشمز ولتناي، كلٌّ على حصان، قال جاق للتناي:
- هل ستعودين خالية اليدين يا بنت النارت؟ أقول هذا لأن ما سلبه هذا المجرم من الناس ذهباً وفضة أعرف أنه تحت معلفي.
- جاؤوا بي مكرهةً والآن أعود حرة، – قالت لتناي والتفتت إلى أشمز.

لم يرض الحصان النحيف الصغير:

- حقاً، نحن لم نأت إلى بلاد غريبة من أجل المال.

ووافقه جاق:

- أنت عادل يا أخي الصغير. ليعُدِ المال إلى أصحابه.

وأجاب أشمز الحصانين:

- سنتصرف تبعاً لرأي لتناي. أرى أن أمراً ما ينغِّص عليك يا ابنتنا.
- الأول هو الخاتم الذي جاءني به والدي من مدينة قافا. والثاني... لا أعرف كيف أعبّر عنه... ولكن لن أخفيه عنك. هو إحدى حمالتي الصدر اللتين صنعتهما لي أمي من جلد الخروف، والتي لم تقع عليها عين ذكرٍ. ومكانها لا يعرفه غيري. أنا قلت ما عليّ، والفعل لك.
- لو كنت محلي يا لوبلان ماذا كنت فعلت؟..- سألت كاترين أخاها الصغير.
- كنت فعلتُ ما قاله جاق.

سكتت كاترين لحظة وسألت أخاها:

- إن كان هذا جوابك فقد عرف أشمز ولتناي وجاق والحصان الشيطان مرادك. أما ما سلبه العملاق من ذهب وفضة فقد ملؤوا به العربة العالية وجاؤوا به إلى القرية التي تعيش فيها غُشَناغوه، وظلوا يأكلون ويشربون ويلعبون أسبوعاً. وحين انقضت أيام الفرح عاد أشمز ولتناي مرفَقين بمئة فارس إلى قريتهما. وانتهى عرس أشمز ولتناي في أسبوع.

تمهلت كاترين قليلاً على ما روت، وأكملت:

- لأجل هذا يقول الناس: من يعمل خيراً يلق خيراً.

كان لو بلان نائماً في الغرفة المظلمة ولم يعرف إن كان ما رووه له مجرد أسطورة أم حكاية أم أخباراً متناقضة. ولم يكن في وضع يسمح بتقدير كلام أخته.

الفصل الخامس

صباح يوم خميس

عند باب دار جراجه

- لوبلان! صاح بكر
- هذا بكر... – نظر لوبلان نحو أرض الدار.

- كُلْ يا أخي، قالت كاترين لأخيها، وخرجت لتقول لبكر: – تفضل! ها هو حالاً، اِفطر مع صديقك الصغير.
- شكراً كاترين، ترجل بكر معتبراً ركوبه في حضرة كاترين قلة أدب، – كان من الممكن أن أتفضل، ولكن كنا اتفقنا أنا ولوبلان أن نورد حصانينا الماء... ولكن لا أعرف كيف أقول... لا تصدِّقي ما يقول لك أخي الأكبر...
- ارتعبت كاترين مما قيل لها، ولكنها عادت إلى طبيعتها وسألت بكر بصوت أكثر جِدّية:
- – وهل لدى أخيك سرٌّ معي؟ إن كان عندك ما لا أعرفه فقل لي!
- الحقيقة أني لا أعرف كيف أقول... أقصد ما قاله لك قبل أيام على شاطئ البحر... لن أخفي عنك ما أعرف... الخشب الذي في البحر يبلى غير أن السر الذي في القلب يستعر...
- يا بكر!..– انتفضت كاترين من كلام الشاب الأسمر النحيل الطويل الذي كان ينتظر جوابها بانشراح وطيبة قلب دون أن تعي الفتاة إن كانت نبرة كلام بكر لطيفة أم خشنة.

أخرج لوبلان حصانه الأشهب فزِعاً غير عابئ بالموقف بين كاترين وبكر إن كان ودوداً أم جافياً، وانطلق، تبعه بكر.

وقفت كاترين التي وقعت في حيرة من أمرها تتابع الفارسين برهة، ثم دخلت البيت مهملة كلبها الذي يحوم حولها. بدأت تلملم مائدة إفطار أخيها ولكنها تساءلت حين لم تفهم صراحةَ بكرٍ غيرَ المنتظرة، ونظرتَه الواعدة فجلست إلى الموقد لا تعرف ما العمل. قالت لنفسها: " ماذا اكتشف الأخوان فيّ؟ لا أطيق رؤية جدتهما. ليست المشكلة فيّ بل في العِرق كله. ألا يعرف الإخوة هذا؟ إذا كان قرج يفصح عما يريد فإن بكراً يغازلني تلميحاً. إن عرفتْ جدتكما لعنتنا جميعَنا. ماذا أقول؟ أأترك أخي الصغير وحده في البيت؟! لن أفعل هذا أبداً. وفي العالم الآخر الذي تتحدث عنه لاشِن سأريح روح قلب والدي ووالدتي. ولكن هل في الوحدة مَسرة؟ أليس من أجل هذا لا أريد أن يبقى أخي الصغير وحيداً؟ إن عشنا فسنجد الحظ الذي قدره الله لنا. ولكننا لن نقعد بانتظاره. سنعمل لأنفسنا ما بوُسعِنا ونحمي أنفسنا. ولن ندع الناس يتكلمون علينا بسوء. أقول هذا ولكن لا نعرف ما ينتظرنا. كيف سيكون؟ كانت أمي تقول ويوافقها والدي: لم يُخلق بعدُ من يعرف الغيب ولم يمت ".

ارتجفت أعضاء كاترين لأنها لم تفهم ما جرى لها. واحمر خداها. وخيل إليها أن الدنيا صمتت وانقبضت رغم أن الشمس تعبر من النافذة. نظرت من خلال النافذة الضيقة، وأنصتت. ليس في القرية

أي صوت بشري أو زقزقة عصافير أو نباح كلاب. وما كادت تتساءل عما جرى حتى اهتزت الأرض وارتجّت الغرفة وانقلب ما على طاولة الطعام. كان أولَ من خطر لها أخوها الصغير فقفزت من الغرفة غير أن الأرض التي كانت تهتز اهتزت مرة أخيرة وهدأت.

السماء تحمي الأرض مطمئنة. والشمس تجري إلى كبد السماء كأن لم يحدث شيء. والهواء يداعب بلطف أوراق الأشجار التي تخلت عن الفزع. ولا تزال أصوات أمواج البحر مسموعة.

قالت كاترين لأخيها لوبلان حين رأته يركض إلى البيت:

- حسنٌ أنك نجوت من الطبيعة الغاضبة يا لوبلان.
- وهل ستتوقف الحياة من أجل هزة أرض... — قال لو بلان لأخته ثم سألها: وأنت كيف مرت عليك الهزة؟
- قلقتُ لأنك لم تكن معي.
- ما كان عليك أن تقلقي...– قال لوبلان لأخته كأن شيئاً لا يهمه: – هل تعرفين مصدر الهزة الأرضية يا كاترين؟ إن كنت لا تعرفين فسأُطلعك: باكوه الكافر قيَّد نسرينَ زعيمَ النارتيين من رقبته إلى جبل أوشحه مافه، فكلما تنهد هزّ الأرض بتنهده.
- من قال لك هذا؟

- قاله لي بكر والأرض تهتز: لا داعي لليأس.
- ربما سمع صاحبك أخبار نسرين ولكنه لا يعرف الحقيقة. أين هذا الراوي للأخبار؟
- هل تقصدين بكر؟.. أنت تتحدثين عنه يا كاترين بهذا الاستخفاف ولكنه شاب ذكي، طاهر القلب والروح، ربما ليس في قريتنا من يُقارَن به...
- يا لوبلان، يا أخي الصغير – ضحكت كاترين وهي تتذكر ما قالوه لها بلغة الخور – هل تعرف معنى كلامك؟ أم أن أحدهم بعثك مرسالاً إلي؟
- أنا ليس عندي في الدنيا من أسمع كلامه غيرك. – أقول ما يُخيَّل إلي فحسب.
- اطمئن يا روحي الوحيد، – قالت كاترين لأخيها ثم أتبعت كلامها بالمزاح: – إن عرفت ذلك الذي يخطر لك هل تعرف ما سيجري لنا؟ عجوزهم ستقيدني أنا أيضاً في البيت وأنت لن يسمح لك بتجاوز باب دارهم.

احتدّ لوبلان:

- إن فعلوا بك هذا فلن أدع أحداً من الأخوين والعجوز حياً.
- وهل أنت قادر على هذا؟

- لا تسخري مني يا كاترين، أنا لا أمزح.
- أُصدِّقك، أصدقك. إن كان هذا رأيَك فما أنا قادر عليه هو من شأني فسأريك إياه، ولن أتركه لك. – رأت كاترين لاشن قادمة ففرحت: – تفضلي لاشِن، تفضلي.
- سأتفضل يا كاترين، سأتفضل. قلقتُ عليكم من الهزة الأرضية التي حمانا من شرها الله الأحد فجئت أطمئن عليكم. ماذا جرى لكم وكيف أصبحتم؟ يا من أدعو الله العلي أن يشملكم برعايته يا جيراني الطيبين؟ الله يختبرنا في داره الفانية، وهذا سرُّ هذه المصيبة. ولهذا يُرعد ويُبرق ويرسل الرياح العاتية. الله يرعانا من أجل أن نعمل الصالحات في دنيانا التي لا يؤمن بها غُشفج التي لا تؤمن بآخرة الله ولذا غضب الله عليها. نعم يا بنتي وأنت يا ولدي لا تصدقوا ما تقول غشفج لكم. ما تقوله غشفج مبعثه أحزانها وأنتم لا شأن لكم بها. نعم لهذا يقولون: الحب نار مستعرة. إن لم ترعبكم هزة الأرض فسأنصرف إلى بيتي.

ما إن خرجت لاشِن من دار جراجه حتى ألقى لو بلان نظرة قلق على أخته وسألها:

- أي حزن وحب تتكلم عليه لاشِن.

- وأنا لا أعرف...- أجابت كاترين بهذا الأسلوب نفسه، ومع ذلك امتلأت نفسها هماً.

الفصل السادس

عند الفجر

أَسدلَ السحابُ الكثيف الصمتَ على قرية شلج

كان موعد استيقاظ كاترين قد حان ولكنها أصغت بعض الوقت تريد أن تعرف لماذا ما تزال الغرفة مظلمة. ثم قامت من الفراش، ووقفت فوق الفراش الفارغ على رؤوس أصابعها، ونظرت عبر زجاج النافذة، فجعلها السحاب الكثيف تعود إلى وعيها. ثم استدارت إلى أخيها النائم على الصوفا فأصلحت اللحاف على جسده. وعادت إلى النوم. أنصتت كاترين ثانية إلى السحاب من خلال الظلام: لا صوت في القرية، ولا كأن نهر بخبس يجري، ولا البحر القريب يموج، ولا كلاب تنبح، ولا خراف تثغو، ولا أبقار تخور حتى الكلب كج، كلها صامتة. والديكة مبعوثو النهار صامتة. قالت كاترين لنفسها: "أطلتُ نومي، لن أشبه نفسي بهذه الدواب. سأوقظ لوبلان فرحاً. سأصنع له من الفخذ الذي جاءت به لاشين حساء طيباً، وأنا أمتع نفسي معه.

سأل لو بلان كأنه سمع كلامها:

- هل نهضت من النوم يا كاترين؟
- وهل صحوت من جديد يا أخي الصغير؟
- سأل كاترين لوبلان بصوت حنون ثم قالت له: – وهل أنام وقد أتانا اليوم الجديد؟ نهارك سعيد يا أخي. ابق أنت في الفراش.
- وكيف أبقى في الفراش وقد كان آباؤنا وأمهاتنا يقولون: بعد الغيوم الباردة يأتي نهار خير.

ألقت كاترين نظرة حب على أخيها فرحة بشكْرِه أمه وأباه. "ما أسعد حظي بمثل هذا الأخ الأصغر الذي لا ينسى أباه وأمه. وفي الوقت نفسه يهتم بي ويرعاني. يقول إنه مستعد أن يضحي بحياته من أجلي دون أن يهاب أحداً، لا قدّر الله أن نقع في مثل هذا الموقف.

- نعم يا لوبلان، هكذا كان أبونا وأمنا يقولان. ونحن نقول هذا لأنفسنا. أدعو لك الله أن تكون ذا حظ سعيد، وأدعو لنفسي بمثله.

جلس لوبلان في الفراش وسأل:

- لماذا تخاطبين "الله" بطريقة غير طريقة لاشِن؟ أبوانا كانا ينطقان"الله". ألأنك ما تزالين خائفة من الصاعقة؟

كانت كاترين قد ارتعبت من الأسئلة المفاجئة ولكنها أجابت أخاها إجابة سريعة متصنعة المزاح:

- لا، يا أخي الباحث عن المعرفة الكثيرة. ما الفائدة من الخوف من الصاعقة بعدما فعلتْ بنا ما فعلت.
- وأنا أرى هذا. ولكن الزلزال والفيضان والنار...

قطعت كاترين كلام لوبلان:

- الأشياء الأخرى التي تسأل عنها " فـ "الله" و "الإله" لا يختلفان، ولهذا أقول ما أقول.
- حسنٌ إن كان هذا رأيَك، – قال لوبلان، ولمّح لأخته: – ولكن الإخلاص لاسمك المسيحي ليس سيئاً.
- ألأنك تصف اسمي بالمسيحي؟
- لست من يقول هذا، بل القرية كلها، غير أن بكر يرى أن اسمك روميّ.
- اسمع ماذا يقولان!..– ابتسمت كاترين، وسألت لوبلان: – ألا يقول صديقك عن نفسه إنه رومي؟
- لا، حتى لو قال فلن أقبل منه. أيمكن أن يكونوا هم أديغة ونحن لا؟

- اطمئن يا لوبلان! طبيعي ألا تقبل منه، ولكن بكر لن يقول هذا ولن يقبل أن يقوله أحد. ها هي أشعة الشمس تبدد السحب الصباحية. سأشعل نار الموقد ريثما تقوم من الفراش. — لامت كاترين نفسها حين لم تعثر على جمرات مساءِ البارحة التي خبّأتها في الرماد: – أفقنا دون جمرات. سأذهب إلى بيت لاشن وآتي ببضع جمرات.

قفز لو بلان وبدأ يلبس ثيابه:

- سآتيك بها حالاً.
- ألقى لوبلان الحامل وعاء حديدياً لأجل الجمرات نظرة نحو القرية. لم ير مدخنة يخرج منها الدخان إلا مدخنة بيت قرج فذهب إليهم. ولما وصل إلى الباب رأى بين الحائطين رأس غُشَفج الدقيق التي نادته:
- ماذا تريد يا ابن جراج؟ ماذا تريد في هذا الجو الكالح؟
- رأيت الدخان يخرج من مدخنتكم يا غُشَفج — نطق باسم العجوز تودداً — فجئت أستعير النار.
- أتريد أن أعيد إيقاد نار بيت جراج المنطفئة!.. — صاحت العجوز بصوت مرعب ثم ابتسمت — ليت الصاعقة ضربتكم

من جديد بدلاً من أن أعيركم ناراً. كنت فرحت كأني سأعيش بقدر ما عشت. اغربْ عن وجهي!

التفت لوبلان نحو الصوت الذي ناداه وهو سائر يفكر آسفاً على أنه خطر له أن يضرب العجوز، جدة بكر، بوعاء النار الذي بيده.

- لا تكترث بما سمعت! جدتنا تخاطبنا بأبشع مما سمعت، وتفعل بنا. ماذا نفعل بها... ولكنها تعتذر إلينا وتتوسل أن نسامحها، وتدعو إلى الله من أجلنا.
- جدتك هل رأسها سليم؟
- اسألني عن ذكائها. تُبصّر، وتجعل القرية تسمع كلامها... ما الذي بيدك؟ هل جئت تطلب ناراً؟
- لم يرسلني أحد! لم يكن يصدر دخان من المواقد القريبة فتوقفت عندكم.

ألقى بكر على لوبلان نظرة كأنه يراه لأول مرة، وسأله:

- هل عندك حجر الصوان؟
- هل قلت حجر الصوان؟
- أقصد الحجر الذي يصدر منه الشرر.

- كان عندي في زمن ما... ولما أصيبت يدي كما ترى ألقيت به في وادي بخبس... ولكني أعرف أن كاترين تحتفظ بالحجر الذي كان يستعمله والدي.
- تعال، لماذا نحن واقفان. إذا كان عندكم مثل هذا الحجر وعندك أختٌ مثل كاترين فلا تهتم بالنار. أفهم ما تريد أن تقول... من على رأسها خمار تتزوج، ومن على رأسه قبعة يتزوج. لم تبدأ المسألة بنا ولن تنتهي. وكما تقول لاشِن لا داعي لليأس. سأقول لك ما تفكر فيه الآن يا لوبلان: أنت تقارن بين لاشِن وجدتي.
- عرفتَ، – توقف لو بلان وسأل بكراً _ من أين تعرف؟
- لا تستغرب! — ابتسم بكر ابتسامة لا تليق بوجهه الصبوح — لأن فيّ شيئاً من طبع جدتي غُشَفج البصارة.
- هل فيك شيء من دمها أم تشبهها؟
- لا أستطيع أن أقول إني أشبهها تماماً... لا تظن أني أوافقها على كل ما تقول، ولا تظن أني أشبه قرج أنا وهو سليلا أب واحد وأم واحدة غير أني لا أريد أن أكون مثله. ولكن الأفضل ألا نتكلم على جدتي بخير أو بشرّ.

- "إنها ترتب القرية كلها، تتدخل في كل شيء، ونحن لا تطيقنا" قال لوبلان لنفسه ووجد ذريعة لمفارقة بكر الذي ينظر إليه بود ويُكِنّ له المحبة:
- ها هي مدخنة لاشن ينبعث منها الدخان؛ لنترك الصوان وغيره ولنستعر النار منها.
- أنت تعرف الأفضل. نحن لا نعطي من موقدنا أي جمرة لأحد فلا تؤاخذونا. لا تنقل كلام جدتي إلى كاترين فتوهنَ قلب الفتاة. صدِّقني أنا سأُفهِمها يوماً ما الموضوع. وسأدعو إلى الله أن تشتعل جمرات لاشن في موقدكم – قال بكر في إثر لوبلان:
– أظنكم تعرفون أن إعادة مراسم آل برقت التي كانت تعطلت ستجري الليلة...

لم يكن لو بلان يعرف ما سأل عنه بكر ولكن تظاهر بأنه يعرف فأبلغه.

حين دخل لوبلان البيت سألته دون عتاب أخته التي كانت تنظف فخذ الخروف:

- ما أطول غيابك!

- انتظرت حتى أشعلت لاشن نار الموقد، – ولم يخبر كاترين بلقائه مع بكر.

تسبب لوبلان الذي كلّف نفسه بجلب النار بأفكار حزينة لم ينتظرها. أوقد النار وهو لا يستطيع تحليل ما جرى له في أقل من ربع ساعة. لم يقتنع بكومة الحطب المقطَّع أمام الغرفة فخرج وجاء ببضع قطع من المكان الجاف بما استطاعت يده الوحيدة معاونة صدره. صفّ الأخشاب الجديدة والقديمة وسوّاها. جلس قليلاً يراقب تطايرُ اللهب ثم وقف مقابل النافذة الموجهة إلى الشارع. تمثّلت أمامه جدّةُ بكر التي كانت تراقبه من بين دفتي الباب بعينين لامعتين، وسمع لعناتها. وحين يتخلص من هذه الرؤى التي لا تُطاق بهزة رأس، يقف بكر بقامته الممشوقة لا يعاتبه، بل يبتسم في وجهه ويلاطفه. ويهدئه بكلمات حكيمة. يسأله عن حجر الصوان ويعِده خيراً. الآن يحمي أخاه الأكبر الذي لا يحمل له الود " إن كان من أجل جدته الشيطانة التترية التي تكرهنا فليس في القرية عجوز حكيمة مثلُها... من يقول هذا هو أخوه الأكبر. وبكر ينافس قرج ولو لم يجرؤ على التصريح، فهو طامع في أختي، وأنا يدعني أنظر إليه بقلب ودود. من لا تعرفه يجعل نفسه غامضاً، وهذا ما كانت أمي تقوله. أأكون أبالغ

في حكمي على بكر؟ ولكني فعلت خيراً إذ لم آتِ به إلى بيتنا بحجة حجر الصوان."

- يا لو بلان هل أنت في البيت؟ حين نادت كاترين أخاها الصغير انتشلته من أفكاره.
- ألا ترين يا كاترين أني في البيت؟
- خُيِّل إليَّ أنك في البيت ولست في البيت. قل لي أيقلقك شيء؟ لا تكتم عني!
- وكيف لي أن أقلق وموقدنا يسمح لك بالطبخ، والغيم اضمحلّ والشمس خرقت الغيوم؟!
- إن كنت تقول هذا يا أخي الصغير العاقل اجلس إلى المائدة. سأطعمك فطوراً طيباً.
- بهذه السرعة! وأنتِ؟
- ما أسرع ما ينضج لحم الخروف. أنا يسرني أن تأكل فأحس الطعام ينزل في حلقي. ندعو للاشن إلى الله العزيز كما تقول هي أن يُطيل الله عمرها، وأن تعيش حياتها سليمة صحيحة الجسم من أجل اللحم لذي أهدتنا إياه ومن أجل النار.
- أوافقك على دعائك من أجل لاشن، ولكني لن أحس بلذة طعامك وحدي.

- هل نسيت يا روحي الوحيد الذي أمتلكه في الدنيا، أن أمنا كانت تطعم أبانا قبل الجميع.
- أتذكر. ولكن مع ذلك...
- كفى، لا تحرد من أجل أمنا وأبينا. اليوم فقط آكل معك قبل أن يأتيك بكر.
- انفجر لوبلان عاجزاً عن السيطرة على صوته:
- اِنسي هذا الذي نطقتِ اسمه!
- ماذا؟ هل استأت منه؟
- لا أعرف، لو لم يكن إلا جدته الشيطانة...
- هل تسمع ما تقول غُشَفج بحقنا لأول مرة؟ - سألت كاترين أخاها، وتخيلت بكر. "أيكون جرى شيء منكر بين هذين الاثنين؟ متى يمكن أن يكون حدث هذا؟ أيكون قرج؟"

الفصل السابع

ينظر إليك فيجعلك تعرج

يتهمك بما ليس ذنبك

سُمع صوت المنادي الذي يرجّ القرية:

- أيتها القرية، يا أهل القرية. أنا من يخاطبكم. وأنتم من تسمعون. العرس الذي كان آل برقت أوقفوه من سوء الحظ يستأنفونه الليلة. يدعونكم إلى عرسهم، وأدعوكم باسمي، تقاسمونهم الفرح، وفي وجوهكم الحبور والطيبة. وأدعو إلى الله الذي في السماء، والذي خلق جنس الإنسان، أن يزيد رزقكم ويُنقص همومكم.

علق كاترين على الخبر السار للمنادي بكلام لطيف:

- ليجعل الله نصيب الشابين اللذين قطعت مآسي القرية فرحهما وافراً.
- وأنا هذا ما أقوله- ألقى لو بلان نظرة ود إلى أخته كاترين، واختتم كلامها: - إن كان هذان محظوظين فنحن والقرية كلها محظوظة. ولكن من لا يودّوننا...
- مهلاً، مهلاً يا لوبلان، - قالت كاترين وقاطعت كلام أخيها. — لا تُفسد كلماتنا الطيبة. ما يفسد حياة قطيع الماعز عنزة جرباء. أنت تعرف اسمه ولو لم أنطق به.
- أعرفه!- قاطع لوبلان أخته، وابتسم في وجهها:
- هل تعرفين يا كاترين أني أستمتع بسماع صوت منادي قريتنا.

يبدأ بقوله: "من يخاطبكم أنا، ومن يسمعون أنتم " ويختتم بقوله:

" عشتم وسعِدتم، وأنا استمتعت معكم" أليس هذا خيراً على نفسه!

- لا! – كان جواب كاترين قصيراً.– "ما كان فيه يدك فيه فمك". هكذا يقول الناس.
- اسمعوا ما تقول كاترين...– قال لوبلان لأخته بطيبة قلب، وامتدح وجبتها الطيبة – أسعدتِني، شكراً والحمد لله. أدعو إلى الله أن نعيش وأنت تسعدينني.
- حلال عليك، حقق الله دعاءك. والآن سأقول لك ما سنفعل. لن نجلس عاطلين بلا فائدة. سنبدأ بمعالجة جلود الأغنام نلطّفها. هذا موعد وصول الجنويين الطليان، سنبادلها بقماش الأثواب.

جعل كلام كاترين لوبلان يرفع رأسه فجأة:

- كاترين ألم تسمعي المنادي يعلن موعد تجديد زفة العروس، ألسنا مدعوين؟!
- بلى دعَونا، ولكن إن لم يدعوني كسائر بنات القرية فلن أذهب إلى أي مكان، فيحكموا عليّ بأني لا أحترم نفسي. أنت شاب عليك أن تذهب ولو لم يدعوك.
- ماذا أفعل في مكان لن تكوني فيه؟..

- سحب نباح الكلب كج وأصواتُ رجالٍ لوبلان إلى خارج الغرفة: قرج ونباب اللذان يلبسان قبعتين بيضاء وسوداء من جلد الخروف ينظران من فوق حصانيهما من خارج الدار. قال قرج باعتداد:
- كلبك القبيح هذا ينبح علينا كلما رآنا، أسْكِتْه! والآن لن نطيل عليك في سبب مجيئنا: أبلِغ أختك باسم كبير آل برقت، وباسمي وباسم رفيقي نباب أنها مدعوة إلى حفل زفاف العروس الليلة. وما ستهدونه للأسرة الجديدة أنتم أدرى به دون أن نقول نحن لكم.
- يمكن أن تكون الهدية خروفاً أو عنزة أو غيرهما – فصّل نباب ما لم يُفصِح عنه قرج. – ثم نظر إلى الجانب الأيسر من لو بلان على سبيل الاستخفاف وقال له: – وأنت، وإن لم تكن قادراً على التصفيق، ندعوك.
- خرجت كاترين من البيت مهمومة بسبب تأخر أخيها عن العودة. لوبلان جالس على قرمية الخشب الملاصقة للحائط، حاني الرأس ويده على ركبته. وأمامه يجلس كلبه كج كصديق مخلص ينصحه. ركضت كاترين متلهفة:
- ماذا جرى لك. هل أهانوك؟

- كيف يهينوني وهم يدعوننا إلى حفلة الزفاف!
- لماذا تجلس هكذا مطرقاً إذن؟

طفا حزن لو – بلانه فجأة رغماً عنه:

- أنا من لا يملّون من إهانته..." قال لي نباب "وندعوك أنت أيضاً ولو أنك لا تستطيع التصفيق"
- وماذا قال قرج؟
- ماذا يمكنه أن يقول؟ ابتسم...
- لا تهتم؛ هؤلاء يقولون الكثير...– جلست كاترين إلى جانب أخيها الأصغر وحضنته. – إن كانوا أهانوك فلن نذهب إلى الحفلة. – وفيما لوبلان يستغرب ما سمع، نظر إلى أخته. رأى كاترين ندمت على ما قالت: – نعم يا لوبلان، نعم فهمت. هؤلاء مجرد موفدين فحسب. سنذهب إلى فرح آل برقت، وسنقدم للأسرة الجديدة ما هو مناسب. – ستسوق إليهم خروفاً كبيراً، وسترقص وهم يصفقون لك.

مع حلول وقت الاحتفال مر بكر على بيت جراجه راكباً عربة يجرها حصانان، وبجانبه صُغرى بنات آل برقت وبنت جيرانهم، وأخذوا معهم كاترين وأخاها إلى الحفل وسط استغراب المشاهدين.

الحفلة حفلة كبيرة. ودار آل برقت تعجّ بالناس. المسنون والمسنات يجلسون كلٌّ في جهة. والشباب والبنات يقفون متقابلين بحيث يرى كلٌّ الآخر. والآلات المتنوعة من الأوكورديون وآلات الإيقاع تصدح بكل ضجيجها. وعريف الحفل زلق اللسان، يمدح من يدعوهم إلى الرقص؛ كلٌّ حسب عمره. يشبهه بالسنونوات وبالنجوم يصفهم بأنهم أبهى من قمر السماء وأقرب إلى القلب. يلوم المتكاسلين عن التصفيق. يستحثهم بالعبارة التقليدية "مارج!" فيبعث الحماسة والحيوية في الرقص. ينوّه بأسماء الراقصين المندفعين إلى الساحة ممن حان دورهم. ويسرد ما جاء من هدايا للأسرة الجديدة دون أن ينسى أسماء المقدِّمين.

ينطق راعي الحفل باسمي كاترين ولوبلان اللذين صدف دورهما معاً:

- الآن لا تسألوا عمن قدم عِجلة تكاد تلد، لن آتي على ذِكره، السرّ سينكشف في وقت ما. ألبي له رجاءه. هيا يا كاترين ولوبلان جراجه إلى الساحة. التصفيق، التصفيق! لا تبخلوا بالتصفيق. وأنت أيها القمر المنير أوعِز لنجومك أن تصفق!

لوبلان ابن يعقوب جراجه قلوبات وأخته كاترين يرقصان في فرح

آل برقت. ليكن خيراً، لا لقريتنا وللقرى الأخرى، بل لمن يعيشون وراء البحر أيضاً.

حين أوصلوا كاترين ولوبلان إلى بيتهما بعد انتهاء الحفل، سألت كاترين أخاها عما كان يشغل باله:

- من يا ترى خطر بباله أن يدعونا إلى الرقص معاً؟ ومن الذي دفع عنا العجلة؟
- ألم يقل العريف إن السر سينكشف يوماً!
- جزاه الله خيراً ،كائناً من كان. جعل القرية تصفق لنا.
- لم يكن بين المصفقين قرج ونباب.
- ولا بكر... – أضافت كاترين إلى كلام أخيها – ماذا يحاول هؤلاء يا ترى؟

الفصل الثامن
اليوم التالي للعرس
الباخرة الإيطالية رست على الشاطئ

- يا أهل القرية، أنا من يتكلم، ومن يسمعون أنتم... سُمع صوت المنادي.

ارتعبت كاترين التي كانت تدق بالحجر المدور جلد الخروف، فقالت لأخيها الصغير:

- ربما جرت مأساة في القرية...
- رست سفينة تجارية للإيطاليين الجنويين على الشاطئ. إن كان عندكم ما تبدلون أو تشترون فهم ينتظرونكم...

والآن أعادت أخبار المنادي كاترين إلى وعيها، فأضافت إلى أخيها:

- إن كان الأمر هكذا فلا بأس.
- سأل لوبلان أخته بنبرة حزن:
- وأنت ماذا كنت تخيلتِ؟
- وهل قليل ما يخطر على البال؟! اختفى قرج ونباب من الحفلة وكذلك بكر.
- وفيمَ تحتاجين إليهم؟ – غمغم لو بلان.
- وهذا صحيح... كما تقول لاشِن. لا داعي لليأس. هل تعرف ماذا نفعل الآن؟ سنبدل جلود الخراف التي جهزناها بأقمشة أو بغيرها.

صفّ لوبلان وكاترين جلود الخراف الثلاثة عشر على ظهر الحصان، وتوجها إلى شاطئ البحر. توقعا أنهما أول الواصلين إلى الشاطئ، غير أنّ حشوداً من الصغار والكبار كانوا متجمعين في المكان. ولكن النساء بأغطية الرأس كنّ قليلات.

أوصل لوبلان وكاترين الجلود الثلاثة عشر إلى البائع النحيف ذي الشوارب الرفيعة. ولكن التاجر تجاوز الجلود التي يُفترض أن يفحصها أولاً، أغراه جمال الفتاة التي أمامه فنسي عمله.

- ماما ميا! شركسية، عيناها بلون السماء.
- ماذا تقول هذه؟.. لم يتوقف لوبلان أمام دلال ابنة التاجر الغريب أمامه، وأشار إلى كومة الجلود، وكأنه يقول: انظر إلى هذه أولاً: -سنبادلك ببعض قطع القماش الجيدة المتنوعة. ولما بدأ التاجر الغريب يربت على كتف كاترين غير فاهم ما يقال له، وكلماتُ الثناء تتناثر من فمه استل لوبلان خنجره وشهره في وجه التاجر: - لا تلمس أختي! تعالي، هذا رجل سيء!
- مهلاً، مهلاً...- انضم قرج إلى من لم يكونوا يجدون الكلمات.
- أنت يا كارازي! — استغرب الثرثار الإيطالي ما يرى.

- أنا بانوج، أنا — عانق قرج الإيطالي وقال لكاترين: - أظنكما لا تتفقان أنتما وصاحبي.

أجابت كاترين بلامبالاة:

- هو لا يسمع ما نقول، ونحن لا نفهم ما يقول.
- هذا ليس غريباً... — ابتسم قرج، ونظر إلى كاترين معتداً بنفسه: - قولا ما تريدان وأنا سأجعله يُحضره.
- لا نريد ما ليس لنا! - قال لوبلان لقرج باستخفاف. ثم أنهى كلامه بصوت ألطف: - نريد أن نبادله جلودنا ببعض الأقمشة.

كانت جراجه كاترين جاهزة لبعض قطع القماش فبدلتها بالجلود. وبانوج مشيراً إلى كثير من الأنواع عارضاً إياها على كاترين، ثم حزمها لها. وصفّها على ظهر الحصان.

- هل أنت راضية عما جعلتهم يخدمونك به؟ - سأل قرج كاترين، ثم أجاب نفسه بنفسه غير منتظر جوابها: - وكيف لا تكونين غير راضية... نسيت... أمس كنت مشغولاً فلم أركم. هل حقاً جعلوكما ترقصان معاً في الحفلة؟

- نعم، رقصنا معاً، والحفلة كلها صفقت لنا. — قال لوبلان سعيداً، وأردف بما كان يشغل باله: - ولكن لا نعرف من تبرع لنا بالعجل.
- لا تهتم بهذا، سينكشف يوماً ما.
- قرج وهو يتتبع الفارس المنصرف ناسياً بانوج، سأل صديقه التاجر باسماً:
- هل تعجبك الفتاة التي سلبتك عقلك؟
- تمام، تمام!

ابتسم قرج وقال لنفسه: "ونحن أيضاً تعجبنا هذه البنت... والمهرة يروضونها رغماً عنها..."

الفصل التاسع

الصباح الباكر من نهار الريح العاصفة.

غُشفج تولم آل جراجه.

صباحٌ عاصفٌ يُنسيك صباح البارحة الجميل. كبد السماء التي تتدافع فيها قطع الغيوم المتدافعة تستقرّ بينها الشمس بصعوبة. تلقي الشمس نظرة غير عابئة إلى المكان الذي تهوي فيه الدنيا. والريح التي تهب مقلِّدة حمحمة الخيل المتلاحقة تكنس بصهوات أعرافها الخريف

الأصفر من الأرض. حين رأت كاترين لاشن وبكر المسرعين في هذه المعمعة.

استقبلتهما وهي تتساءل: ما الذي جمعهما:

- في هذا الجو العاصف يا لاشن...
- نعم يا كاترين، نعم يا بنتي، لا أعرف كيف أقول: غُشَفج التي سلّمت قلبها وروحها لله أرسلتنا تريد أن تراكما.
- وماذا ستقول لنا من لم تكن تطيقنا؟
- وكان كلام لوبلان مختصراً:
- لن نذهب إلى أي مكان!
- نعم هذا حق... نظرت لاشن نظرة عطف إلى لوبلان، – أعرف يا حسرتي ما يعتمل في قلبك... ولكن مع ذلك... – مسحت بطرف الإيشارب دموعها.

توسّل بكر إلى كاترين ولوبلان:

- مهما كنتما عاتبين على جدتي فحققا لها أخر توسلٍ.

واتفقت لاشن مع من لم يعد لديه لون إنساني: بكر:

- وأتفهم ما يجري في قلب المسكين بكر.

- نظرت كاترين في وجه بكر ونهضت:
- هيا يا لوبلان، لن نجعل أحداً يصِمنا بأننا غير بشر. حين دخلت لاشن وبكر وكاترين ولوبلان إلى حجرة غُشَفج قالت العجوز بصوت منخفض من وراء قرج الذي يعتني بها:
- شكراً لكم، توقعت ألا تأتوا... والآن اخرجوا من الغرفة واتركوا لي آل جراجه!
- إن كان هذا رأيك _ وافقت لاشن – سنتركك.
- لا بأس أن تبقي أنتِ في الغرفة. – قالت غشفج، وتوجهت إلى من استدعتهما: – أنا ستنتهي أيامي في الدنيا اليوم أو غداً. الشمس العظمى إلهي أخبرني أنه سيتوفاني، ولذا سأطلعكما على السر الذي لا أحد يعرفه إلا لاشن. أريدكما أن تفهماني. ما رأيك يا لاشن: ألن تتفهماني؟
- نعم ستتفهمانك يا غشفج. إلهنا الرحيم الذي لم نختبره سيفهمك. إن كان الموضوع الذي بدأت قبل أيام ترويني لي ثم أجّلته، فسأسمعك الآن.
- كفى! ستظلين تقولين ما لا يقوله غيرك.... – أسكتت غُشفج لاشن. – وأنتِ لابد أنك تحتفظين بسرٍ ما. ولكن لِيعرف هذان الموضوعَ الذي أهرمني إلى اليوم. وأنا أُريح نفسي. – كان

لوبلان أطرق برأسه مما سمع، فقالت له: – لا تُطرق برأسك: الحب نار وقّادة، ما من بشر إلا وتحرقه وتشويه. كنت أحب جدكما جراجه قلوبات المتعجرف، حتى هذا اليوم الذي أنتظر فيه الموت أحبه. جئت بكما لأروي كيف أفارق الحياة. الآن عندي لكما رجاء بصفتكما سليلَي قلوبات ذي الأصل النبيل. سمعت أن أولادي، يا بنت يعقوب يكنون لك الحب، ولذا من أجل خاطري لا تميلي إلى أيٍّ منهما. وأنت يا لوبلان، وإن كنت لا تريد أن تسمعني، حافظْ على صداقة بكر، وهو يعدني أن يحافظ عليك. والكلام المعيب الذي سمعتموه مني بشأنكما سامحاني عليه. وأتوسل إلى لاشن أن تُبلِغ أهل القرية بهذا. والآن بعدما سمعتما توبتي يمكنكما الانصراف إن شئتما، ولْتدعُ لاشن أيضاً إلهها ألا تصيبكما الصاعقة بعد الآن. أما إلهي الشمس فيقول لي: أنت تعبت على سطح الأرض فارجعي إليّ...

ما إن خرجا من دار قرج حتى سأل لوبلان أخته:

- هل صدّقت ما قالت لنا العجوز؟
- ربما أصدّقها لأنها تبثّ ما في صدرها ساعة وفاتها...
- وهل تغفرين لها لعناتها؟
- أُحيل هذا إلى الله.

- وأنا أرى هذا.
- حسن أن يكون هذا رأيَك. ليكن الخير في قلبك يا لوبلان.

الفصل العاشر

الأمل البعيد يجعلك تنتظره

والترقب الزائد يتوّهك

حياة الإنسان مركَّبة من كثير من الأعاجيب كما تركيب العالَم. والعجيب هذا مركَّب بدوره من مزيد من العجائب. "لا يتراقص اثنان مختلفان " "لا يلعب معاً اثنان مختلفان " "المبالغة في المديح مبالغة في الذم " "من يفعل الخير يجده في طريقه" " من يضربك بالحجر اضربه بالجبن" من أين أتت هذه الكلمات الموروثة؟

في هذه وغيرها يجلس قرج على مقعد صغير معرِّضاً جسده للشمس. مضى على وفاة جدته غشفج شهر فتنهد متألماً، وسالت دموعه: " هكذا قضيتِ عمرك تربيننا وتربين القرية كلها ثم رحلتِ. والآن لا أحد غيرُنا يأتي على ذِكرك. من الغَير؟ من غيرُ أخي الأصغر بكر الداهية، ثم يقول لي دون حياء: تزوجْ، أسِّس أسرة. هل نسيتَ وصية جدتك؟ مهلاً، مهلاً، أيها الخبيث ذو اللسان المعسول. اعملْ ما أقوله لك... "

قرج الذي تجاوز الثلاثين ليس رجلاً حكيماً. ليس محروماً من الشفقة، ولكنها تضيع عند مظالمه المقصودة وغير المقصودة. وعلى مبدأ " إذا اعترضك من يحاول أن يصرع جميع الناس بصدره فلا تسمح له أن يكسر أنفك" يعيش قرج: اعتاد أن يتصاغر الناس له، فهو يعيش ظاناً أن لا أحد غيره يمتلك الرجولة والشفقة في القرية وفي الجوار. مستقلاً برأيه، يرى نفسه جميلاً، مقتنعاً أن أي فتاة يشير إليها بإصبعه ستقبل به مسرورة. ولا يتوقف الأمر هنا. بل الأرامل المرائيات أيضاً. لا يعني هكذا أنه لا يلتفت مرة في الأسبوع إلى إحداهن، ولا أنه لا يقضي معها ساعة ليل حلوة. مع أن من كان يعرف أسرار قرج في القرية هو صديقه نباب إلا أن وصية جدته:" الأفضل لك من بنت آل جراجه، يعني كاترين، الأرملة خيرت المرائية، ستنال رضاي بها "كشفت أن علاقته بخيرت لم تعد سراً.

قرج كمن سمع فجأة سراً، فارتعب وراقب حوله وأنصت، ونادى نحو البيت:

- لماذا أنت يا بكر حبست نفسك في البيت؟ هيا أُخرجْ، لا تحرم نفسك من شمس النهار. – وحين لم يظهر أخوه الأصغر صرخ الآن بصوت حاقد: – ألستَ من طلبت منه الخروج؟!

حين خرج بكر من البيت وهو يفرك عينيه قال له قرج غير عابئ بما يرى:

- ماذا جرى لك تفرك عينيك؟
- قال بكر لأخيه الأكبر مستغرباً جلسته الهادئة ولهجته الحادة:
- مضى شهر اليوم على وفاة جدتنا...
- غيّر قرج نبرته سريعاً:
- أليس من أجل هذا أخرجتك من الغرفة. ماذا بيدنا؟ " لم يأت إلى الدنيا من لم يصنعوا له مهداً ومن لم يحفروا له قبراً " كما كانت جدتنا المرحومة تقول. ونحن يا أخي الرقيق أمامنا هذا المصير. دع اليأس واجلسْ. ها هم آل جراجة لا يفقدون الأمل رغم المصيبة التي جرت لهم. يعيشون حيث تضرب الصاعقة معيلين أنفسهم. هذا ما يجري في الدنيا؛ أليس لهذا يقول نباب: "أحدهم ينتكب، والآخر يأكله الجرب". مضى وقت غير قصير على عدم ظهور من تتخذه صديقاً لوبلان... وأخته المتكبرة كذلك.
- كيف نتكلم على هؤلاء بسوء في يوم حزننا على جدتنا...

- كأني لم أقل لك شيئاً إذن، وأنت لم تسمع شيئاً. أخاف أن يكون جرى سوء تفاهم بينك أنت وهما. – غمغم قرج حين بدأ المؤذن ماجُخ بإعلان صلاة الظهر.
- إذن لن يسمحوا لنا بالكلام على راحتنا. هل نذهب إلى الجامع للصلاة يا أخي؟
- الدين الذي لم تكن جدتنا تقبله...

جلس قرج صامتاً بعض الوقت ثم أضاف:

- ماذا أقول لك في هذا الموضوع... إذا أخطأ أحد سكان القرية فهل تخطئ القرية بأكملها؟
- شخص واحد يستطيع تغريم القرية كلها... كانت لاشن قالت لي هذا منذ أيام.
- من كان المقصود بهذا؟ – انتفض قرج كما لو كان هو المعني، وسأله: – جدتنا؟
- – لا، قالت دون أن تقصد أحداً معيناً.
- لا بأس إذن. يحدث مثل هذا. ونحن سنوافق القرية حتى لو لم نكن مجهزين تماماً للإسلام الذي تقبّلته أكثرية القرية. لماذا نحن جالسان نتأمل بعضنا؟ لنتوضّأ. أتساءل: هل نباب هو من يتجه نحو الجامع؟

- نعم ومعه لوبلان... – استغرب بكر ما يرى.
- غضب قرج بعينين جاحظتين:
- نحن هنا نثرثر في ما هو صحيح وما هو خطأ... متى صار هذا مصلياً! أنا أقول شيئاً وهو يفعل غيره.
- ولكن هل تستطيع أن تختبئ بين المصلين؟
- أليس هذا رأيي أيضاً... – "أظن أن هؤلاء يخفون عني شيئاً لا يريدون إطلاعي عليه..." قال قرج في نفسه ثم انفجر غاضباً: – مثل هذا لا يحدث، وإذا حدث فلن أقبل! أنا لن أفعل شيئاً في جامعٍ مؤذنه ماجُخ لا يتوضأ. أنت كما تشاء اذهب إن أردت. قال قرج لأخيه الأصغر بنبرته الغاضبة، ونهض ثم جلس ثم نهض.
- قال بكر " يوم توفيت جدتنا المسكينة بدأ أخي الحديث دون مراعاة للمناسبة..." ثم خاطب أخاه بلطف غاضباً عليه ومشفقاً:
- إن كان هذا رأيك فأنا أيضاً لن أذهب.
- من البديهي ألا تذهب! –كان أكد على أخيه غير أن صوت باب الدار لفت انتباهه، وقال لنباب غامزاً منه: – أي صلاة تصلي وأنت نقضت وضوءك؟!

رد نباب على قرصة قرج بقرصة مازحة:

- الناس الذين لا يغلقون بطونهم جيداً يحدث لهم مثل هذا. لم أرك بين المصلين فجئتك.

وامتدح قرج نباب بما ليس في قلبه:

- عفارم! غلبتني هذه المرة.
- إذن أتمتع بالرجولة؛ ما رأيك يا بكر؟
- وهل يعرف من سألتَه جواباً؟ غلبتني بالكلام، أنت تعرف: ما يقطعه السيف يندمل، وما يقطعه اللسان لا يندمل.
- لم أقصد ما فهمتَه، بل أجبت على سؤالك فحسب.
- الآن لمعت عينا قرج العصبيتان:
- اسمع ما يقال لك، أما كلامك فلا فائدة فيه.
- سأصغي إليك، سأصغي، ألا تعرف نقيصتي – اتهم نباب نفسه – كان عندي إسهال في الكلام.
- حين نهض بكر الذي لم يعد يتحمل مهاترات قرج ونباب، سأله أخوه الأكبر:
- إلى أين؟
- تكلما أنتما... أنا سأتفقد الخراف.

- كان يجب أن تفعل هذا منذ وقت طويل. الذئاب نشيطة ليلاً ونهاراً.

قال نباب بعدما خرج بكر، خائفاً مما يقول:

- يخيَّل إلي أنك تبالغ في الضغط على أخيك الأصغر، لا أعرف إن كنت على خطأ...
- هذا الذي تتكلم عليه – ابتسم قرج مزدرياً أخاه – ألا تعرفُ شباب اليوم بمن فيهم من تقلقُ عليه؟ سواء ترجّيتهم أو بكيت لأجلهم أو صفعتهم على قفا رؤوسهم فلن يغيروا شيئاً من كلامهم لا يفهمون ما تقول لهم. عنيدون بتهور ودون وعي. لماذا تنظر إليّ؛ هل أقول باطلاً؟
- وكيف يخرج من فمك باطل!
- أكيد لن أفعل – قال قرج كعادته بصوت عالٍ ثم غيّر موقفه من أخيه مشفقاً عليه: – لا أظن أخي كما أصفه، أظنني أبالغ. ولكن يُخيل إلي أنه لم يسمع وصية جدتنا بشأن آل جراجه.
- وكيف لم يسمع؟ القرية بكاملها تتكلم عليها. – استعجل بنابه غير فاهم ما يريد صديقه بكلامه.
- اسمع ما يقول هذا!..–كم مرة قلت لك ألا تسحب سيفك دون أن تفهم السبب. أتكلم على بنت آل جراجه.

- ألم تحل المرحومة جدتك منذ زمن طويل هذا الموضوع؟
- بالنسبة لي هذه قضية محلولة. ومعقدة من ناحية أخرى... — قال قرج، ثم كشف لنباب ما كان يفكر فيه — من تحميه صار عاشقاً لها.

نباب الذي كان يعرف الموضوع جلس مدة مثل كومة مسروقات ملفوفة جيداً، ثم قال كأنه غير مهتم بما سمع:

- سمعت أشياء من هذا القبيل، ولكني لا أصدِّق.
- وقرج من جهته سخر من صوت نبابه:
- أنا منذ زمن غير قصير صدّقتُ هذا فلا أعرف لماذا أنت لا تصدّق.
- غضب نبابه من نفسه: " لماذا تُلِح عليّ رقبة الذئب هذه التي لا تلتف؟! " يحظ لي بعينيه حيناً، وحيناً تنفرج أساريره لي. مرة يقرصني، ثم يمسح بيده عليّ... كنت أريد أن أتخذه صديقاً في هذه الحياة الثقيلة ولكن انظر كيف يتصرف معي! يتظاهر بأنه يمزح معي فيسخر مني ويهينني. لو كان الأمر بيني وبينه لهان، ولكنه يدعو من يعرفني ومن لا يعرفني إلى الاستهزاء بي. الذنب ذنبي! قبل أعوام حين لم أخطب أرملة من الأبزاخ ما كان عليّ أن أُفشي له سرّاً يتعلق بذكورتي. كان يقول لي دائماً إنك لا

مَيل لك إلى النساء فتصنعت الرجولة والغضب، وصارحتُه بحقيقة الأمر. خبطت رأسي بنفسي بالفأس. ربما من كان وراء قولهم "من أين أتيت أيتها المصيبة!" واحداً مثلي. من في الدنيا الآن بلا عيب؟! هل يعني ضعفي الجنسي نقصاً في رجولتي؟ عليّ أن أجد ما أقطع به لسانه أو حتى لو لم أدخل ثانية القرية التي أهانوني فيها، أو أجد لنفسي مكاناً يحفظ سري من أرض الأبزاخ. ولكن هل تلك الجهة من الأبزاخ تخلو من النساء؟ من أجل هذا يقولون: "جنس النساء حمال العيوب، وسبب لتصادم الرجال" والرجال؟ ونحن لسنا فوق العيوب. نلبس القبعات حقاً ولكن من يلبسن الإيشارب يطوِّعننا. نسمح لهن بخداعنا. كما يقول قرمُ الحطب الجالس أمامي مدّاحُ نفسه، نصبح عشاقاً لهن..."

- ألقى قرج نظرة سخرية على نباب وسأله:
- لماذا أنت جالس منكمشاً على نفسك؟ المصلّون تفرقوا. وها هي ابنة جراجه تجلس مع لاشن معتدة بجمالها. ولكن عندما كنت تصلي كانت متعلقة بك، أما الآن فلا أراها. هل تعتقد أن كاترين التي رفضت تغيير اسمها النصراني يمكن أن تصبح مسلمة الآن؟

- أعتقد لأنها أسلمت إذا كانت تدخل الجامع.
- ونحن نذهب إلى الجامع. ولكن من الصعب تصديق ما يقول المولى النهم... لولا وصية جدتي لعرفت ماذا أفعل بهذه الفتاة المتكبرة المرائية التي تصلي. نعم، نعم، لا تستغرب، أنت لا تنفع النساء في شيء. وإلا كنت وجّهتُك إلى أخي الذي سجّى جثمان جدته بكل خشوع لتنفّره من الفتاة.
- يا قرج! – انتفض نباب واقفاً. – أهنتني، اسحبْ كلامك!
- ماذا تقول؟! – وهذا ما كان يريده قرج، فهبّ واقفاً جاحظ العينين.
- ماذا يمكن أن أقول؟ – تراجع نباب كما اعتاد. – علي أن أعود إلى البيت.
- وهل عندك بيت ترتاح فيه؟ ماذا تفعل في بيتك، اجلسْ!
- سأجلس إن تعهدت ألا تهينني.
- لا تبالغ في اهتمامك... لأني تصورت أن أخي الأصغر يسمع كلامك.
- شكراً ولكن هذا تبعاً لما تريد أن تُسمعه. – لطّف نباب لهجته.
- أسمعك، لا بأُذني فقط، بل بكل جوارحي.

- عليك أن تنصحه دون أن تُبرز شخصي بتنفيذ وصية جدتي بخصوص آل جراجه. فإن لم يفعل أفهِمه أنه سيأتي بمصيبة لنفسه أو للقرية كلها.
- كما تريد، ولكن إن لم يسمعني؟
- إن لم يسمعك فمتى انقضى فصل الشتاء سيأتي بانوج الذي سيحرمنا من كل شيء.
- ثقْ بي، أعدك بتحقيق حتى ما لستُ قادراً على تحقيقه. ولكن أفضل شيء ألا يدخل الدم في المسألة، الدموع ليست مشكلة.
- هذا يا صديقي الحبيب لسنا من نقرره، هذا يتعلق بهم، لا بنا.
- وأنا أرى هذا.
- كلانا من رأي واحد، – ابتسم قرج في سرّه، واختتم لنباب: – ما نقوله لا يسمعه أيٌّ منا.
- "اليوم الذي ستسمعني فيه سآتيك به" — أرغمت الحمية نباب على القول، وابتسم في وجه قرج الذي كان ينظر إليه.
- هل تريد أن تسمِعني خبراً ساراً نسيتَه؟
- لو كان عندي ما يسرّ لقلته لك بكل سرور... اليوم كما تعرف أنا أخرس... لا أمل لديّ، من يعرف ما يحدث غداً.
- اليوم، وبعد غد، إن كنت لا تعرف بيَدِ من فسأقول لك: أنا!

- نعم يا قرج!
- من يخالف ما أقول، – قال قرج لصديقه وهو يربت بكفيه الواسعتين على فخذيه، – سيتحرر لسانه، وسيرهف سمعه.
- أصدّقك... — ابتسم نباب لقرج مرة أخرى وهو يقول: "تسخر مني دائماً. بالنسبة لأخيه بكر هذا مجنون أهوج. يجب أن أفعل شيئاً بحقه يوقفه".

الفصل الحادي عشر
أشجار الخريف تتعرّى
تُخجل النهار المضيء

ينظر لو بلان من فوق الأغنام التي تبحث في المرعى الباهت فيرى العجب: " لماذا أشجار الخريف تتعرى للشتاء القادم بدلاً من أن تتغطى؟ نحن لا نترجى البرد أن ينصرف، نتجهز بالجلة وباللباس الدافئ فرحين، لا نسمح لأنفسنا أن ننسى أن وراء الربيع صيفاً مرحاً. ولكن كما تقول كاترين هذه الأشجار هي التي تحيينا بإحراق أنفسها. كيف سيكون الشتاء؟ أيكون دون فائدة لنا وللطبيعة؟

- هل ترعى الخراف؟ – شخَص لوبلان فوق رأس بكر فجأة، فقطع أفكاره.
- هذا أنت؟.. – سأل بكر لوبلان دون شوق إليه.
- جئت أتفقد خرافنا.
- ها هي، في أحسن حال. لا خروف افترسه الذئب بينها. ترعى وعلامات أسرتكم السوداء على ظهورها.
- وخرافكم دون أختام؟
- خرافنا كأصحابها دون أختام.
- أنتم لستم دون علامات. كان عليكم أن تضعوا على الخراف علامة النبلاء التي تحملونها.
- علامتنا احترقت في نار الصاعقة... نسينا شكلها.

الفصل الثاني عشر

عام 1450

شهر كانون الثاني

فُرجة الأمل خيرٌ من اليقين.

عواصف الثلج تُخفي عنك شلج. والريح المجنونة تنتفض كحصان هائج. وذرات الثلج الساقطة منها تتقاذفها الرياح، ترتمي تحت الجدران. وتطير إلى السطوح. تصارع دخان المواقد. تطير فوق الماء

المتجمد دون زلاجات. فتتلقاها أمواه الأمواج المالحة. يقول لوبلان الفرِحُ بنار الموقد لأخته:

- شتاء حقيقي. والعام الماضي كان مثل هذا الشتاء. هذه النعجة المسكينة التي اختطفها الذئب هذا الخريف كانت سرّتنا بنعجتين.
- كانت إحداهما سوداء والأخرى بيضاء، فصّلت كاترين كلام أخيها وهي تقلّب نار الموقد.

استعجل لوبلان غير راض البتة بما يرى:

- لا تقلبي النار! الجمرات تتقافز في فضاء الغرفة.
- كأنك لا تريد أن يأتينا ضيف؟ ألا تتذكر أبانا وأمنا كيف كانا يرحبان بالضيوف؟
- أتذكر... ما حاجتنا نحن إلى ضيوف!
- ألست أديغياً فتنفر من الضيوف!
- نعم أنا أديغي ولكن لا أريدهم الآن...- قال لوبلان ووجد لنفسه ذريعة — سأنام إذن.
- أليس الوقت مبكراً؟ ألستَ من كان يريد أن يلعب معي لعبة الفوازير؟

- أنا، ولكن قلت ربما أرهقتك.
- وكيف أملّ منك يا إحدى عينيّ! — خفق قلب كاترين ولكنها عادت إلى وعيها بسرعة: - اعرف إذن: قاو- قاو سريع الجري، يدور القرية كلها؟
- الديك الرومي الذي ليس عندنا منه في الأسرة.
- سنحصل عليه يوماً ما. ما هذا: يمشي على وجه الأرض، ويسمع؟
- وهذا نوع من الديك الرومي يعيش في الماء.
- هذا لن تعرفه: مشيته كالديك وملتوٍ. عنده سنّ أوزة.
- عرفته منذ بدأت: المنجل.
- إن عرفت هذا أعطيتك عشر قرى: نحيفة وتحمل من الرصاص بقدر وزنها.
- هذه نملة شغالة مثلك.
- اسمعْ بِم شبهني أخي...
- لو لم ينكبني الله لكنت مثل تلك النملة...-قال لو بلان عن نفسه، وألقى نظرة على أخته مفتخراً بنفسه: - أنتظرك.
- أجابت كاترين كأنها لم تسمع ما يُحزن أخاها:
- الآن جاءك الدور.

- أنا بدلاً من هذه اللعبة التي تربح فيها قرى وتخسر، سأعيد عليك ما كان يحكيه والدنا من حكايات البعوضة والأسدِ المدّاحِ نفسه. فاسمعيني دون أن تقاطعيني ولو كنت تعرفين.
- أسمعك بكل سرور.
- الحشرات أوت إلى جحورها، والطيور إلى الأشجار والليل الذي حان وقت نومه أوى إلى راحته.
- وفجأة سُمع صوت الأسد فهبت المخلوقات فزعة من النوم. الطيور القلقة هزت أغصان الأشجار، والهوام انتفضت. والبعوضة التي قطعوا عليها نومها غضبت:
- الأسد ذو الصدر العريض يزأر في منتصف الليل. لو وقع هذا في يدي للقنته الدرس الذي يستحقه. – لما بدأت البعوضة تستعمل أنفها شوكة رأت الأسد الحافي يمر أمامها فنادته: – أيها الحافي، يا صاحب الأخفاف الكبيرة لماذا لا تدعنا ننام في منتصف الليل؟
- توقَّف الأسد ونهر البعوضة:
- كيف ترفعين صوتك عليّ " ألا تعرفين أني ملككم؟ أُبيدكِ بحركة واحدة أيتها الثرثارة.
- أغضب كلام الأسد البعوضة:

- من قال لك إنك ملكنا؟ من انتخبك؟ لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك. انصرف من وجهي! دعني أنام مرتاحة!
- الأسد يسودُّ حيناً ويحمرُّ حيناً. تأتيه نوبة برد حيناً، وحيناً زوبعة. وهذه تتوضع فوق الأرض سحابة سوداء. ثم يصحو فيخاطب البعوضة:
- الآن حالاً سأفعل بك ما تستحقين!

ترد البعوضة:

- سنرى!
- فردت البعوضة جناحيها، وطارت إلى السماء. ارتمت مثل حَجَرة مسننة على أنف الأسد العنيد. وبدأت تغزّ رأس إبرتها في قلب منخار الأسد. جعلت البعوضة الأسد ذا الأخفاف العريضة يقفز، وينفض رأسه. بل بدأ يتدحرج هنا وهناك. ماذا يفعل؟ لم يستطع إيذاء البعوضة في شيء. وفي لحظة يأس توسل الأسد العنيد إلى البعوضة:
- اتركيني. أنا تحت تصرفك. – ثم هوى الأسد مزمجراً، ونهض بصعوبة.

هددت البعوضة الأسد:

- هناك من هم أقوى منك. من الآن كُفّ عن الزمجرة نهاراً وليلاً.

ابتعد الأسد الذي تأكله الإهانة مطأطئاً:

- هزمتُ الأسد! ليس في الغابة أقوى مني ولا أمهر قتالاً! ما أعقلني وما أذكاني – ظلت البعوضة تردد هذا الكلام لاهيةً حتى سقطت في شبكة العنكبوت. فابتلعتها العنكبوتة التي كانت تغزل الشبكة. احتد الأسد والتهب غضباً. ولم يعش أسبوعاً.

اختتمت كاترين الحكاية:

- كلاهما يستحق اللوم، جرى لهما ما يستحقان.

وأضاف لوبلان إلى ما قالته أخته:

- في قريتنا شخصان يضمان أحياناً إليهما شخصاً ثالثاً.
- هذان أتركهما لله.
- والثالث الذي لم أنطق اسمه أيضاً؟
- هل صالحت هذا الثالث؟
- من الذي صالحته؟..- سأل لوبلان أخته كأنه لا يعرف شيئاً عن الثالث.
- هذا الذي لا تستطيع نُطق اسمه.

- وهل كنا أعداء؟

ابتسمت كاترين وقالت لمن عرفت سره الواضح كالشمس:

- أظن أن القعود إلى نار الموقد أرهقك... أعددت لك فراشك، استرحْ!
- أليس الوقت مبكراً الآن... - قال لوبلان، ثم أعلن ما كان يشغل باله دون تصريح به: - هذا الذي يشغل بالك.
- الحياة مركبة من كل الهموم، فأيَّها تقصد؟
- ألم أقل إني مهموم بما يهمك... وفي هذا المجال ما قررته جدَّتهما لهما ولنا، هل نسيت؟
- يسعدني أن الخير رجع إلى علاقاتكما.
- لستُ موافقاً تماماً على ما تقولين. ولكن ليس في قلب أحدنا شر للآخر.
- حسناً يا أخي الصغير، حسناً. من الأفضل ألا تعيش دائماً بكلام محسوم.
- هؤلاء كانت جدتهم بكلام محسوم، كانت تدعو علينا... ما ذنبنا في ما لم يتحقق لها؟ كانت تعادينا.
- في الحياة يحدث مثلُ هذا وغيره... تمهلتْ أكثر مما ينبغي، وكما تقول لاشن، الحب نار هائلة، لا كلام يمكن ألا يدعوك إلى

اجتنابها ولا فِعل. ولكنها ساعة احتضارها وجدت فرصة للتنفيس عن قلبها. كل إنسان يجد لنفسه زاوية يرى منها. إن عاش أصبحت حياته أسهل عليه.

رد لوبلان على أخته:

- أعرف ما جرى لها! كما يقول مؤذننا ماجُخ، لأنها كانت تخاف من جسر جهنم.

ضحكت كاترين.

- لو كانت خائفة لما قالت: لا تقيموا علاقات حب بين الرجال والنساء. يا لوبلان، يا أخي الحبيب ألا يكفي كم تكلمنا على السوء! إن كنت ذكياً سأسمِعك قصة – سؤالاً وأرى إن كنت ستجيب.
- حسناً يا كاترين. سأنصت إليك مرتاحاً لأن العاصفة الثلجية كأنها تهدأ. وسنرى إن كنتُ ذكياً أم لا.
- كان عند ثلاثة إخوة ثور كبير. –كان الثور كبيراً جداً. يرعى ما على الجبال السبعة وهو على جبل واحد. ولم يكن يكفيه ما في نهر شحغواش وبشش ولابا وبسقوبس وأربي وفرزان وشخوج وبجاش من ماء. فقرروا أن يسوقوه إلى نهر بشزه ليشرب.

- كبير الإخوة يجلس على كتفي الثور، والأوسط على الظهر، وأصغرهم يثبّت نفسه على مؤخرته. وفيما هم يسيرون صادفوا فارساً ترجاه كبيرهم:
- رجاء متى التقيت بأخي الأصغر الجالس على ظهر الثور ارجُه أن يسرع ليلاقيني.
- مشى الفارس أسبوعاً حتى التقى براكب ظهر الثور. فأبلغه رجاء أخيه الأكبر.
- قال الأخ الأوسط: – إذن بلّغ مِن إخوتنا مَن يركب مؤخرة الثور أن يبقى يقظاً. مشى الفارس أسبوعاً آخر فلما التقى بالأخ الأصغر بلّغه رجاء أخويه الكبيرين.
- حين وصل الإخوة الثلاثة إلى نهر بشزه على ظهر الثور شرب الثور كل ما في النهر دون أن يترك قطرة واحدة.
- عجباً كيف يحدث هذا؟! – استغرب لوبلان.
- استأنفت كاترين سردها كأنها لم تسمع ما قال أخوها:
- ما إن جلس الإخوة لتناول الغداء على مائدة بحجم السماء حتى انقضّ النسر فخطف الثور.
- جلس النسر الكبير في مكان، وأكل الثور. بقيت له فجوة الورك فحملها معه. ولما سقطت منه تلك الفجوة أثناء طيرانه وقعت

أمام الراعي العجوز الذي كان يراقب المشهد. ولما رعى الأغنام وعاد إلى البيت قال لكنائنه السبع:

- هيا اركبن جلودَ الخنازير ومع كل منكن عصا للخنزير وادخلن في عيني. دخلت قطعة في عيني تزعجني قليلاً.
- دخلت الكنائن في أجواف الخنازير السبعة ومعهن العصي السبع. وفيما هن يبحثن وجدن فخذ الثور، وانتشلنه متعاونات. تفحّص الراعي الفخذ من كل جوانبه، ثم ألقاه خارج البيت.
- ربما كانت عين الراعي العجوز بقدر أوشحه مافه، وبعمق البحر الأسود...- لم يملك لوبلان إلا أن يتدخل.

مرة أخرى تظاهرت كاترين بأنها لم تسمع تعليق أخيها الأصغر، واستأنفت حكايتها:

- حين تجمع التراب على قطعة الفخذ التي رموها من الغرفة نبت عليها العشب الأخضر اشتهرت باسم القرية مكاناً تبنى عليه المساكن فسكن عليها سبع قرى بحالها، وفي الثقب الذي أحدثته الفخذ تنفذ عربات الملح، فتمشي سبعة أيام على الملح. وتخرج العربات معبأة به. وفي أحد الأيام رأت العجوز التي كانت تطبخ حلّة عظيمة من الحساءِ الملحَ الخارج من الثقب فقالت لابنتها الصغيرة:

- يا صغيرتي، أنا بحاجة لشيء من الملح لأجل الحساء فهاتي لي من هذا الملح الخارج من الثقب.
- اعترضت الفتاة العربات وأبلغتهم برغبة جدتها، رموها حِمل سبع عربات بملء قبضة يد. ولما وضعتها العجوز في حسائها لم يكف الملح، وشربت أسرتها الحساء وأكلوا اللحم وهم يشكون من قلة الملح.
- وهكذا فيما تعيش القرى السبع اكتشف أحد الثعالب ثقب الفخذ وبدأ يقضم العظم. القرى السبع تهتز، والبيوت تنهار، وجد أحد الرجالِ الثعلب الذي تسبب في هذا فقتله. وكانت عروس جديدة تمضي إلى النبع. فرأت نصف جلد الثعلب غير المسلوخ، فقالت في نفسها يكفي هذا قبعة لولدي. أمسكت بالدلوين بيدٍ، وبالأخرى قلبت بعصا الدلوين الثعلب. ولما لم يكفِ نصف الجلد أكملت بجلد خروف جهزوه ليكون فراء على قدر برية قريتها. فأكتملت القبعة.

قطعت كاترين روايتها وسألت لوبلان بلهجة مرائية:

- مَن مِن بين ما سردت لك يمكن أن يكون الأكبر؟
- داخ رأسي وأنا أستمع إلى ما تروين... كلٌّ منها أكبر من الأُخرى، وأقوى. لا أعرف آراء غيري ولكن في رأيي الطفل

الذي أضافت المرأة قطعة من الجلد لإكمال قبعته هو الأكبر بينها. ألن يكبر هذا الطفل برأسه وسائر أعضاء جسده.

- وأنا أرى هذا. ولكن غيرنا قد يرون شيئاً آخر. لأجل هذا يقولون: هكذا يجب أن تعيش وأنت تترك لما تقول زاوية للعين تنظر منها. العاصفة تهدأ، ونحن سنستريح بعد العناء. تصبحْ على خير يا لوبلان.
- وأنتِ يا كاترين!

الفصل الثالث عشر

البحر الهائج يمور

يتلاعب بالمركب الوحيد

الوقت هو وقت تنافس النهار المضيء والليل المظلم. الآن لا يزال لوبلان يحلم: الحصان الذي تحته القسم الأمامي منه أبيض، والقسم الخلفي أسود. عُرف الحصان أحمر، وذيله أصفر. جانب قبعته جلد ذئب، والآخر ابن آوى. وجلدا الرسن من لونين مختلفين. أحدهما أزرق والآخر أحمر. وأذنا الحصان إحداهما بيضاء والأخرى سوداء. الركابان بين ماء الفضة وماء الذهب. وكلبه الملون ينظر إلى وجهه بسحنة خنزير مجبر. قباب الجبال العارية من الثلج القريبة — البعيدة

تشق السماء بقممها الكثيرة المدببة. تنزاح نحو جانب بحر آزوف. الذي ترتفع أمواجه ذات القمم البيضاء، فتتقاذف المركب الوحيد بلا إرادة ولا أمل. ومن ناحية المركب يصدر صوت كاترين الفزعة. يجري حصان لوبلان ليساعد كاترين فيقذف راكبه الذي يجد نفسه هلِعاً وسط فراشه.

- ماذا جرى يا لوبلان، يا روحي الوحيد؟ – تقفز كاترين وتركض باتجاه أخيها.
- سمعتك تستغيثين من الباخرة...
- يا لوبلان، يا روحي الوحيد، ضمت كاترين أخاها إلى صدرها وقالت له: – أنت تبالغ في خوفك عليّ. لم يخطفني أحد. ولن أسمح لأحد أن يفعل هذا. سأرقص في عرس زفافك كما قلت لك بكل طاقتي. الغرفة بردت. ابق أنت في الفراش، وأنا سأعيد تذخير الموقد.
- كيف أنام والفجر يطل على حينا. سأتوجه إلى المواشي وأقدم لها ما تحتاجه.

أسرع لوبلان بارتداء ملابسه وخرج من الغرفة، وبدأ بجرف الثلج من أمام الغرفة بيده اليمنى الوحيدة بالمجرفة الخشبية. وكاترين التي تحضّر الفطور، والتي لا ترتاح إلى عمل أخيها، خرجت أكثر من مرة

تساعده في جرف الثلج. ولما خرجت هذه المرة ورأت بكر يساعد لوبلان تعجبت دون أن تعرف سبب قدومه. ولكنها استفاقت سريعاً وسألت الضيف غير المنتظر:

- صباح الخير يا بكر. يسرني أنك جئت تساعد صديقك الأصغر.
- أسرع لوبلان ليشرح لأخته سبب مجيء بكر:
- حين جرف بكر ما أمام باب لاشن من ثلج لم يتجاوز بابنا. أنهى معي عملي ولكنه يرفض الدخول إلى البيت.
- تفضلْ يا بكر، تفطر مع لوبلان!
- كان لا بأس بأن أتفضل لولا هذا الذي ترونه يركض.
- لجم قرج حصانه الأسود أمام باب آل جراجه، ونهر أخاه الأصغر وهو يهز سوط الحصان القصير:
- ماذا تفعل في دار هؤلاء؟ هل نسيت وصية والدك يا من لا يسمع الكلمة! نحن غارقون هناك في أعمالنا، وهو يعبد آل جراجه. هيا أمامي إلى البيت!
- كان لوبلان يريد أن يستوقف بكر، ولكن قرج قطع عليه كلامه:

- ابق أنت في مسكنتك! – وتوجّه نحو كاترين التي كانت تراقب الموقف ذاهلة بعينين مفتوحتين، وهو يهز لها سوط الحصان – وأنتِ أيضاً سأجعلك تقولين كل ما تعرفين...– حث قرج الحصان، ولحق بأخيه الأصغر ناثراً الثلج وراءه.

الفصل الرابع عشر

الشتاء يلبس الثوب الدافئ

وفي الشتاء يدوي الرعد

لما وصل الأخوان، أحدهما على قدميه والآخر راكباً، قال قرج لأخيه الأصغر:

- افتح باب الدار ودعني أدخل!
- فتح بكر باب الدار دون اعتراض، فدخل أخوه الدار. لم يكفِ هذا قرج، بل أمره: – أمسِك لجام الحصان ودعني أترجل!
- نفذ بكر هذا الأمر أيضاً لأخيه الأكبر وسأله دون أن يُظهر انزعاجه وهو يجرف الثلج: – ماذا أفعل أيضاً من أعمالنا التي بلا نهاية.

- اسمع كيف يتكلم معي هذا! وهل الأعمال قليلة؟ قدّم العلف للحيوانات، واسقِها، ونظِّف الأشجار المثمرة من الثلج. أما أنا فقد كتب الله عليّ أن أشعل اليوم نار الموقد، اليوم فحسب!

خدم بكر المواشي، وبعد أن نفضَ الثلج عن أشجار الإجّاص والكرز وغيرها ودخل الغرفة، قال بحرص لأخيه الذي كان يبحث في رماد الموقد:

- أظنها خلت من الجمرات...
- نعم، – رمى قرج الكلمة لأخيه دون أن يلتفت إليه. – لأنك لم تهتم بها عشية أمس بالرماد.
- ها أنا الآن، سأذهب إلى الجيران لاستعارة الجمرات.
- إلى أين ستذهب؟ الآن التفت قرج إلى أخيه بعين حاقدة، – إلى بيت جراجه؟
- وغيرهم من الجيران نارهم شاعلة.

قال قرج لبكر بلهجة ألطف:

- اهدأ! الآن أنا سأشعلها بالصوان بسهولة. وسأقول لك ما تفعله الآن: قطِّع لحم نصف الخروف، لا داعي لليأس كما كانت تقول جدتنا. لا تجعلنا نحني رأسنا، سنعمل من الخروف لحماً

مقلّى ممتازاً. أنا أكبر منك بتسع سنوات، لا أعرف ماذا انتظر أبوانا طوال هذه المدة، إن أطعتني في أعمالك فلن تخطئ. ماذا يقول كبارنا؟ قائمة البقرة لا تقتل عجلاً. أنا وأنت أخوان بالدم والقلب. الأخوان حدّا السيف. متى ما تعاونا مثل شفرتي هذين الحدين لن يتجرأ علينا ناقمٌ. وسكان القرية يعرفون هذا فيحترموننا. ألا تصدّقني؟ صدّق! من يقول لك هذا هو أنا! ولكن لا تمدح نفسك قائلاً عندي أخ كبير قوي وحكيم. لا تؤذ أحداً. جدتنا التي تحرص علينا كل يوم مراقِبةً إيانا من كبد السماء لن تقبل منك. وأنا لن أقبل. أنظر إليك فأراك وأنا أيضاً صارت ملابسنا بالية بسبب تأخر سفينة بانوج. إن جاءنا في نهاية الشتاء فسنكتسي كلانا، وكذلك أهل القرية.

قطّع بكر فخذ الخروف بالسكينة القصيرة مصغياً إلى كل ما يقول أخوه، متعجباً منه. قشر البصل والثوم، وسأل نفسه: "من أهانني في حضرة كاترين ولوبلان لماذا يقول هذا متصنعاً الرقة والمودة؟ أهل القرية يعرفونني ليس بأقل مما أعرفك أنا. يحترمونك في حضورك، ومن حظهم أنك لا تسمع متى أدرت ظهرهم لك. يبدو أنه يريد أن يقول لي شيئاً. ما الذي لا يستطيع قوله؟ أيكون ما بيني وبين كاترين؟ –

ركض بكر وراء أخيه ويده تعصر السيف القصير. ثم وضع السيف من يده حتى لا يقال: قاتِلُ أخيه.

سأل قرج كأنه سمع ما كان يشغل بال بكر:

- أراك لا تقول شيئاً يا أخي الصغير، لماذا؟
- اللحم جاهز، والبصل والفجل أيضاً.
- ادهن اللحم بالبصل والثوم. حسنٌ أنك بكّرت بالتمليح. أنا كنت سألتك عن أخبار القرية. ماذا يقولون فيها وماذا يفعلون؟
- سنسمع أخبار من يصلّون الظهر.
- وهل عند المصلين ما يقولونه؟ هات هذا، والبصل والثوم لاحقاً.
- حين انشغل قرج بالطبخ بكمين مرفوعين، لم يكن بكر بلا عمل. رتب الصوفايات، وكنس أرض الغرفة. ووضع المائدة، وصفّ عليها صحني الخشب، وإلى جانب كل صحن إبرة خشبية.
- نظر بكر إلى المائدة وقال:
- ليس عندنا إدام.
- ألا ترى صحن الباستة التي بقيت من أمس؟ أقول لك ما ليس على المائدة: الصحن الثالث. حين كانت جدتنا تطعمنا كانت

تضع الصحن الثالث على المائدة. ألا تتذكر؟ لم تكن تأكل معنا. تصورا أني آكلُ معكما. حلال على كل من يدخل البيت. سيأكل معكم؛ هذه كانت تعليماتها.

- كانت جدتنا كريمة بالطعام.
- ليس بالطعام وحده، كانت ذكية منذ خلقها الله. كانت امرأة طيبة. لا تدعنا نتهمها بشأن أسرة جراجه. وهؤلاء صالحتْهم في الأيام الأخيرة من عمرها. ولكن لا يجوز أن نكِل وصيتها إلى أحد فننساها. لماذا تجلس حانياً رأسك؟ هل أقول ما لا يليق؟
- أنقول ما لا يليق إن تذاكرنا وصية جدتنا؟! لو كان كل شيء يجري في الحياة كما تشتهي!
- أقول لك إنه لن يحدث شيء في العالم. أنا قلتُ ما عليّ، عليك أن تسمعني.
- سأل بكر أخاه الأكبر وهو يكظم ضيقه بصعوبة:
- من لا تستطيع ذِكر اسمه لو فتح لك قلبه بالخير هل كنت تقول هذا؟
- اسمع ما يقول هذا! نباب قليل الحظ لن نحرمه من لحمنا المقلّى، اركض وادعُه! — ابتسم بكر ولبس وخرج من البيت قال قرج

لأخيه الأصغر وهو يهز ملعقة اللحم من ورائه: – أنا سأجعلك لا ترى من يراك...

– فيما يلبس نباب فراءه الذئبي الأشعث قال لبكر:

– سآتي بكل سرور إن كان لديكم أيها الأخوان مثل هذه النية الطيبة نحوي. — استراح قليلاً ثم استأنف: – كيف تسير أمورك؟

– أي أمر؟ – أعاد بكر السؤال وكأنه لا يعرف عمّ يسأل صاحبه.

– تلك المشكلة التي كنت صارحتني بها.

– من يعرف هذا الموضوع أفضل مني هو أخي الأكبر؛ هل كلّمته؟

– لم آخذ الأمر بجدية وأسأله، ألا تعرف طبيعته؟ حتى هو لا يثق بنفسه ولكن كما كنا نحن الاثنين اتفقنا، إن لم تتراجع فأنت وأنا إن كان يُهيننا فسندفعه إلى أن يقول كل ما يعرفه، وندفعه إلى فِعله. ولكن أليس صديقي ومن عمري، وهو أخوك الأكبر، كأن المسألة لا دم فيها. ثق بي في هذا. حتى لو أجبرتني على فِعله فلن أفعل. يا ربي أيكون عند صديقي الأصيل شيء من "الباخسمه"

– إن كان هذا الذي يقصف الساقين فلا تهتم! برميل الباخسمه الخشبي يرقد بكل اعتداد في مخزنه بالملحق؛ ألن تذهبا إلى صلاة الظهر؟

- الباخسمه كلما مضى عليها الوقت اكتسبت مزيداً من القوة. ألن تنتظرنا حتى نعود من صلاة الظهر؟ هيا بنا، سنجد حلاً ما لهذه القضية. لن ندع اللحم الذي تأتيني نكهته الطيبة تبرد.

النهار يمضي إلى منتصفه بفضل الشمس التي تخترق بصعوبة السحب الكثيفة المحمرة. ليس في الجو ريح تهز الأشجار التي تلبس ملابس بيضاء. الدخان الخارج من بعض المداخن يتراكض إلى السماء. فراء نباب تكنس أطرافه طريق الثلج. وعلى فراء بكر القصير يكاد الزنار الضيق يبين ولا يبين. وقبعته الشعثاء تزيد في طوله والجزمة الجلدية تلف ساقيه. والثلج البارد يزقزق تحت حذائه المصنوع من جلد البقر.

- نظر نباب نحو بكر، وقال لنفسه: "هل تصدّق أن هذين – قرج وبكر – من أب واحد وأم واحدة؟ هذا شاب بوجه طلق، ومنطق حلو، وقرج بوجه عابس. إن أمعنت النظر إليهما فربما وجدت فيهما شبهاً، وهل تتخطى ابنة آل جراجه هذا الشاب وتختار أخاه ذا الوجه البغيض! هذا العنيد لا يعرف نفسه فينافسني... في يوم ما سأتغلب على سخريتك. وكما أقول: بلا الدم كان أفضل. ولكن إن أنجز لي ما وعدني به فلا شيء يوقفني..."
- لام قرج الشابين اللذين دخلا الغرفة ورائحة البرد تقطر منهما:

- هل كنتم وراء البحر؟ بردّتم المائدة. اجلس يا صديقي. قررت أن اللحم الذي آكله من دونك لا يملأ بطني فأرسلت وراءك، حلال عليك ما تأكل!
- لو كان على مائدتك ما يجعل طعامك الحلال أشد حلالاً لصار لي حلالاً أكثر، ربما لم يبق عندك.
- لا تخطئ. عندي أشياء كثيرة ليس عندك منها. هيا يا أخي الصغير جئنا بدلوٍ من الباخسمه.
- كنت آتي به لولا أنه موعد صلاة الظهر.
- نعم حقاً. المولى ماجُخ الذي لا يهدأ يؤذن. كلام بكر صحيح. يريد ألا يدفعنا شيءٌ إلى الخطأ. لن يجري شيء على الباخسمه خلافاً للحم المقلي. كان من الممكن أن نشرب بعد عودتنا من الجامع ولكن تعرف أنت أيضاً أني لا أحب كل طعامٍ أعيد تسخينه يا صديقي الدائم. لنغامر هذه المرة، ولنفعلها. لن يكون ما نفعله أسوأ من كثير مما اقترفناه في ماضينا.
- إن كنت ستحمل عنا الذنب فاذهب أنت يا أخي الصغير إلى الجامع. ادعُ لنا ربك وربنا أن يحقق لنا آمالنا، وأن يغفر لنا هذا القليل الذي سنتناوله. إن تفهّمَنا فأهلاً بمغفرته، وإن لم يغفر فلن نلومه؛ أليس كذلك يا نباب؟

ابتسم نباب لقرج وهو يحتسي كأسه دون استعجال:

- نعم هذا صحيح. أنت دائماً على حق. وأنت رحيم. — وفي هذه اللحظة أضاءت الغرفةَ الشمسُ التي هجمت من بين السحب. فبادر نباب: – والشمس تؤيدني.
- لا تصرخ! ستسمعنا جدتي التي تراقبنا بعينيها من السماء. لن نُريها الباخسمه التي ما كانت تقبلها منا. هيا لنضع الكؤوس تحت المائدة.
- سأضعها إذا كنا سننتظر اختفاء الشمس...– نظر نباب في وجه قرج وقال له ما خطر في هذه الساعة: – إذن سندعو لغُشفج جدتك الحكيمة إلى ربنا أن تكون مرتاحة في السماء التي ارتقت إليها، وأن يكون مقامها بين الأنبياء معززة مكرمة. من لا يحب المديح كما يقول بانوج!.. ونحن نقول من أعماق قلوبنا: آمين! إذا قلناها من أعماقنا فالآن نذوق الباخسمه فوق الدعاء. لن تؤذينا الآن.

قال قرج منشرحاً بعدما شرب من الباخسمه:

- ليس الجنويون الطليان وحدهم من يدعون إلى الله. نحن أيضاً نقول: آمين. ماجُخ المؤذن لا يعرف معنى الكلمة. ولا نحن نعرف.
- نقول آمين لأننا بشر. — قال نباب لقرج بعدما احتسيا بضع جرعات وقد نسيا حِرص غُشفج عليهما. – كل شيء جيد، خير يا صديقي القريب مني. وأمورك ناجحة، والقرية كلها تحترمك. ويأتيك ضيوف من وراء البحر. فلا أدري لماذا تعيش وحيداً.
- كان قرج سعيداً بكلام نباب، ولكنه رد عليه:
- وأنت؟ لماذا أنت وحيد؟
- يا صديقي المقرب!..
- نعم، أنا بالقياس إليك... — فهمت، ماكنت أريد إهانتك. – حررت كأس الباخسمه لسان قرج. – لن أخفي عنك: بنت جراجه المتكبرة لا تبدي لي الود... متى هدأ البحر وجاءنا بانوج فسترى ما أفعل بها. وهل أنا عاجز عن أن أفعل بها شيئاً؟! ألا تعرف أني لست مثلك؟

- أعرف، – "مرة أخرى أنت تسيء إليّ" قال نباب من القهر، ثم امتدح قرج: – أنت جاهز للتعامل معها، ولكن... شرب نباب من الباخسمه قبل أن يكمل الـ "ولكن".
- وعيون قرج جحظت الآن رغماً عنه.
- هل تقصد أخي الصغير الشقي؟! – سأل قرج الآن نباب بصوت ألطف: – ألم تعدني بأن تتفق معه؟
- صحيح، ولكن ما يقوله شيء آخر.
- هه! – قال قرج، ثم جعله صوت الرعد البعيد ينصب رأسه: – كأني أسمع صوت الرعد...
- لا تستغرب، في الشتاء أيضاً ترعد السماء، – أجاب نباب قرج.

الفصل الخامس عشر

الأمل البعيد يجعلك تنتظره

الأمل الذي نهاية له يُفنيك

ربما كان من جعل القائل يقول "إن تدخلت في ما لا شأن لك به جلبت لنفسك الأذى" شخصاً مثل نباب. الاسم الذي سمَّوه به منذ طفولته المبكرة في الأبزاخ، لا يزال إلى الآن يصدق عليه إلى الآن في الشابسغ – الجان. حين يغضب يقرر العودة إلى الأبزاخ ولكنه عاجز

عن هذا. والإهانة التي ألحقوها به لو لم يكن يعرفها إلا قرج فهناك الأبزاخ والجمكوي والمخوش يعرفونها. يقول نباب: إذا سمحت للنساء أن يتداولن عِرضك فسيحدث معك مثلُ هذا، ولكن جذر المشكلة ومظهرها، والإهانةَ التي لحقت برجولته ورياءَه وخبثه ليست بعيدة عن الناس. يعرف نباب أنه بالمظهر الجسدي الجميل وحده لا يمكن العيش بين الناس، ولذلك يعيش دون أن يتدخل في شيء. ويقول ما يقوله قرج الذي يعرف عاهته، ويفعل ما يفعله. ويغازل البنات اللواتي فاتهن قطار الزواج فيزرع فيهن الأمل ويحبِّب نفسه إليهن.

- هذان الأخوان من أي نوع من الناس حتى تثق بهما؟ – سأل نباب نفسه مرة أخرى — من أجل لابسة غطاء رأس مستعدان ليس لأن يتقاطعا فحسب، بل لأن يتقاتلا. إن كان بكر سيعطيني الذهب والفضة اللذين وعدني بهما فاعملا ما تريدان، أحدكما بالآخر، لن آسى عليكما. إن وصلني المبلغ فما حاجتي إلى أمثال بانوج الشرهِين إلى المال. سأشتري بضع سفن من جنوة وكافيه.[5]

[5] اصطلح ملك بيزنطة الشرقية مانويل كومنين مع رئيس جمهورية جنوة. فأنقصوا بموجب الصلح من " حق الله " الذي كانوا يدفعونه. وأسسوا شوارع خاصة لتجار [جنوة] في القسطنطينية. وكُتب نص خاص بحرية

- سأبني جسراً عند المكان الذي يصبح فيه البحر الأسود وبحر آزوف متشابهين في اللون عند بحر آزوف. وسأدفع لشفاء عجزي الجنسي. وسأبدل اسمي القبيح بغيره. (يعني اسمه صاحبَ الوجوه الكثيرة) الله العزيز سينظر إليك بعين العطف. يا نباب، أين هي هذه الثروة التي تطمع فيها؟ هل رأيتها بعينيك؟ هل لمستها بيديك؟ " لا ترفع كمّ بنطالك قبل أن تصل إلى النهر".

في أحد الأيام ذهب نباب إلى القرية وهو يعرف أن قرج ليس في القرية لزيارة بكر

- حضوركم قليل، بل معدوم؛ ما أخباركم؟
- أنت من لم يقل لي شيئاً منذ تحادثنا، تفضل!
- متى اجتمعنا؟ هل بعد اللحم المقلى اللذيذ؟ – سأل نباب بكراً متصنعاً، ثم أجاب نفسه بنفسه: – نعم، نعم اجتمعنا في اليوم الذي تلا يوم الرعد. – كان من الممكن أن أتفضل إلى البيت

تجول التجار في شواطئ البحر الأسود وبحر آزوف. الملك ميخائيل بالوفوغ أوكل إلى أهل جنوة التحكم في حركة التجار في البحر الأسود. واشترت جنوة نصف القرم. وهناك رتبوا مدينة كافيه (الآن فيودوسيا). بدأت كافيه تتوسع بشدة والبوغاز الذي ترسو فيه سفن التجار صار محطة تجارية للتجارة بالرقيق. وعدد الأسرى الذين كانوا يُحملون إلى إيطاليا وإسبانيا ومصر كان يزيد على ألف وخمسمئة في السنة. وأغلى الأصناف الأديغة الجركس شباباً وبنات. وبدأ أباطرة القسطنطينية يخافون من أهل جنوة الذين بيدهم البحر.

ولكن ماذا أفعل في يوم غياب صديقي الغالي. أين أخوك الأكبر؟

- كعب رجله تؤلمه فذهب إلى من يعالج مثل هذه الأوجاع في القرية المجاورة.، أسمعك يا نباب.
- ألم أقل لك إنه ليس مرضاً خطيراً.
- بكر الذي كان يعرف تصنُّع نباب قال له ثانية بصوت هادئ:
- أسمعك.
- هل تقصد الموضوع الذي نشب بينك وبين أخيك الأكبر؟ – كنت كلمته في هذا –كرر نباب الآن الكلمة ذاتها لبكر– ما يقوله هو شيء آخر. ولكن لا أظن أن في الدنيا مسألة تستعصي على الحل إلا الموت. من حظنا أن ما نتابعه ليس مشكلة فهو يحتاج إلى مالٍ لا يغري بالمتابعة.
- ألم نكن قد اتفقنا على هذا؟
- كنت وافقت. من أين نأتي بكل هذا المال؟ كان الأفضل أن أرى بعيني لأن من الصعب أن أصدّق.
- حالاً، ادخل إلى أرض الدار ولو كنت لا تريد دخول الغرفة.
- إن كان موضوعنا وصل إلى هنا فسأدخل البيت أيضاً.

- عاد بكر إلى الغرفة ممسكاً بفم الكيس وعرض ما فيه على نباب.

صاح نباب:

- يا إلهي العلي ماذا أرى؟ من أين جاء قرج بكل هذا؟ مهلاً، لا تغلق فم الكيس. دعني ألمس ما فيه ولو أنك لن تسمح لي برؤيته. هل ما في الكيس متجانس من فوق ومن تحت؟
- إن حققت لنا هدفنا فالثلث لك.
- لا، النصف.

ابتسم بكر:

- النصف فليكن النصف!

وكان جواب نباب قصيراً:

- موعدكم هدوء البحر، – ثم أضاف بعد وقفة قصيرة: – لم أعرف أنك وكاترين على وفاق عاطفي...

الفصل السادس عشر

أمامك شمس تقرص

ووراءك شتاء موحل

أيام الربيع تمسح دموعها وهي تقول: اغفروا لي أواخر الثلوج الشتائية. وأزهار الأشجار تشتهي الآن الهواء الدافئ. وبوادر الأعشاب تحتل السفوح المعرضة للشمس. والسماء تطبق على الأرض بوجه فرِح. والبحر الذي كان يرى هذه المناظر قد هدأ. وسفينة بانوج التي كان ينتظرها قرج ونباب ترسو على الشاطئ.

نادى نباب دون أن يترجل من الحصان.

وخرج بكر من الغرفة.

- هل قرج بالبيت؟ إن كان فلْيخرجْ! – قال نباب لبكر ثم همس له بصوت ألطف: – بانوج جاء، احمل ما اتفقنا عليه، وتعال إلى الشاطئ.
- خرج قرج بجسمه الضخم من الغرفة وهو يفرك عينيه:
- لماذا لا تدخل إلى البيت؟
- كيف أدخل وقد أتى بانوج!

- ها، هل جاء صديقي؟ نحن في البيت ننام. هيا أسرِجْ لي حصاني يا بكر! وأنت تعال! سأعرفك على صديقي، – توجه بكر إلى الإسطبل فهمس قرج لنباب: – هل ستكون ابنة آل جراجه المتكبرة هناك؟
- بالطبع، وأخوها الأقطع العنيد سيكون معها.
- هذا لا ينقصنا.
- ولكن البنت لا تخطو خطوة من دونه.
- إذن سنجعل خطوته الأخيرة تلك التي على الشاطئ. — هذا، نظر قرج إلى الجهة التي أرسل نباب بكراً إليها، وأكّد لنباب، – لا يجوز أن يعرف مهمتنا.
- لن يعرف، ولا يجوز أن يعرف! — ابتسم نباب في سرّه، ووافق قرج.
- قال قرج لنباب ولم يعجبه طول التفات نباب إلى الخلف وهما يخرجان من القرية ومن ريفها:
- ما الذي جرى لك؟ عيناك وراءك؟
- نحن في أحسن حال بإذن الله، ولا مريض بيننا، أتساءل إن كان بكر يأتي فحسبُ.

- أخبِرْه بنيتنا وتراه عبر جسر الآخرة! ربما أسرع إلى بيت جراجه يخبرهم بأن بانوج أتى في مهمة تجارية.
- إذا كان ركض إليهم فعبثاً... مضى وقت غير قصير على تعامُل هؤلاء مع بانوج الجشِع.
- لا تقل مثل هذا يا نباب عن بانوج صديقي، – قال قرج ثم مزح معه: – إذا كنت لا تريد أن يشتريك أنت وحصانك معاً.
- لن تسمح بهذا يا صديقي الطيب وأنت مفتَّح العينين.
- هذا يتعلق بكيفية سير قضيتنا اليوم... – أكمل قرج لنباب بعد وقفة قصيرة: – اطمئنَّ! لن أفعل هذا ولو وضعوا أمامي وزنك من الذهب.
- أنا واثق منك من هذه الناحية. إن فعلت هذا فلن ترضى جدتك التي تنظر من السماء. وثِقْ أيضاً بأخيك الأصغر بكر.
- ما الحديث الذي نخوض فيه. لنسرعْ! – حثّ قرج حصانه بحيث يراه نباب ولكنه سأل الفارس العجوز القادم من جهة السفينة: – أراك يا كبير، يا والدنا لم تستطع أن تشتري شيئاً.
- وكيف أشتري وبانوج الثرثار لا يبيع إلا بأغلى الأسعار!
- تعال يا والدنا، سأجعله يخدمك كما تريد. ما رأيك يا نباب؟

- أكيد سيسمع بانوج كلامك، سيطيعك بكل سرور. – أسرع نباب بالجواب كأنه كان ينتظر السؤال، وقال في سره " إن لم يجعلوك تترجى وأنت مقطوع الرأس".
- لا، لا. ليس هذا ممن تجده على كلامه، لا تتواضعوا له.
- استغرب نباب ما يسمع: "اسمع ماذا يقول" – لا يتواضع لبانوج أيضاً. وينصحنا ألا نتواضع نحن أيضاً بهذا. العجيب أنه يروي رأيه في البيع والشراء دون أن يخاف من صاحبي. ما يقوله هذا هو ما يقال وما يُسمع في القرية. قرج، حسب معرفتي، شرير نحو هؤلاء، وبانوج محتال كذاب. يقولون "لا يتراقص إلا الشبيهان" فإن لم يخدعني بكر فسأجعل هذين الأخوين يرقصان معاً. ولكن كيف لي أن أعرف ماذا ستكون معاملتهما لي؟ أليسا أخوين، أليسا من الأب والأم أنفسهما؟ إن تبيّن أن بكر غير صادق معي فسأجعل الأخوين يلحق أحدهما بالآخر. لو لم تحدث لي هذه المصيبة لحرمتكما من رؤية ابنة آل جراجه التي تموتان في حبها ".
- ما كان يُقلق قرج هو كيفية تحقق مسألته: "من تجاهَلني لماذا يجعل بنت جراجه تلعب بعقل أخي؟ لماذا تدخّل بيننا نحن الأخوين جاعلاً منا سخرية لأهل القرية؟ أخي الأصغر الذي

يجفوني لن أسبب الألم لجسده ولو عاتبته أو نهرته أو صالحته، ولكني سأجعلك تندم على ما تفعل بنا. سأجعلهم يسوقونك إلى مكان لا يروننا فيه – ولا تأتي منه. ليس أنت بل سأرفق بك صديقي هذا الذي مللت منه والذي يبتسم لي ابتسامة الجنون. في أسوأ الأحوال أكسب منه ثمن حصان..."

- أنظر إليك يا نباب فأراك مهموماً بأمر ما؛ أفصح لي عنه!
- من أين يأتيني همٌّ وأنا عندي سند متين وأمل قوي؟ اليوم الذي سيتحقق فيه هدفنا ونور الشمس والبحر كليهما يملأ النفس بالأمل.
- "الشمس والراحة في كل جهة. ولكن الشمس تقرصك من أمامك، ومن ورائك وحْلٌ متجمد" هل سمعت بهذا؟ – هناك مثل هذا القول المأثور. ولكن لا أعرف ما الذي ذكّرك به... هل تقصد أنه لا ثقة بيننا؟
- لأني أقول: من يعرف...

شد نباب لجام حصانه قليلاً:

- إن كنتُ غير موثوق فسأعود إلى بيتي العتيق.

قال قرج لنباب دون مبالاة:

- يقولون: "من لا يتقبل الإهانة يسهل ضياعه"، تعال، هذا لا ينطبق علينا نحن الاثنين.
- لا مانع، هيا! بانوج ينتظرنا.
- حين وصل الفارسان إلى مرسى السفينة قال قرج لأخيه لأنه أول من رأياه:
- نحن ننتظرك هناك وأنت هنا. أين رفاقك لوبلان وأخته؟
- أدخلَهما بانوج إلى السفينة ليعرض عليهما بعض الأقمشة.
- وأنت؟
- أنا ماذا أفعل في السفينة وليس معي نقود!

قفز قرج من السرج كالنسر وقال:

- حالاً، سأرجع حالاً.
- "سترجع إذا سمحوا لك أن ترجع" قال نباب في إثر قرج. وحشر بصعوبة حزمة الذهب والفضة التي انتزعها من بكر في صدره، وقال لبكر: آل جراجه سيخرجون من السفينة فانتظِرْهم أنت. وأنا هنا ولن تروني في قرية شلج التي أدعو عليها بالفناء. غمز نباب الحصان من أسفل بطنه، وهرب.

وفي اللحظة نفسها بدأت السفينة التي تحمل كاترين ولوبلان وقرج تغادر الشاطئ. وبقي بكر ذاهلاً بلا معين. ولما رأى لوبلان يلقون به من السفينة ألقى بنفسه وبثيابه في البحر...

لوبلان الذي انتُشل من البحر على آخر رمق سأل حال صحوته:

- كاترين أين هي؟

الفصل السابع عشر

في الظلام يرونك، وفي الغابة يسمعونك

يتهيّأ لهم أنك مقيد حتى وأنت حر الساقين

أُلقي بقرج مقيد الرجلين واليدين مكموم الفم. تعب وهو ينتفض برأسه وجسمه، فغفا. وحين بدأ البحر يخنقه في المنام أجفله صوت الاستغاثة التي ما كان يسمعها وأيقظه. وبدأ من جديد يلطم جدار السفينة برأسه وبجسده الضخم.

دخل بانوج مع ثلاثة من الرجال مع الفجر إلى قرج وقال:

- انزعوا عنه لثام الفم!

سأل قرج وكأن ما فعلوه به من نزع الكمامة هو من فعلها:

- أي ذنب ارتكبته؟ أين نباب؟

- سأجيب على سؤالك بحكمتكم الشركسية المأثورة: "يرونك في الظلام، ويسمعونك في الغابة".
- هذا ليس لي وحدي، وينطبق عليك.
- والسؤال الثاني؟
- ترجاني نباب الذي سألت عنه أن أجعلك تعيش مقيداً حتى لو كنت بلا قيد. ولذا أحقق له رجاءه.
- لا قرار له! ما أسوأ ما تصرف معي!
- ما فائدة أن تصرخ إن كنت بلا صوت. – أجاب بانوج قرج.
– إن كنت لا تريد أن تصبح طعاماً للأسماك فسينقلونك في قافا إلى سفينة أخرى فأطِع ما نقول.
- إلى أين ستأخذونني مقيَّد اليدين والرجلين؟

ابتسم بانوج وقال لقرج:

- سأرسلك إلى بلاد لن تنجو منها مقابل أضعاف ما كنت تنوي أن تبيعني به كاترين.
- يا بانوج لا تتخيل أن ترسلني إلى أي بحر لن أعود منه.

الفصل الثامن عشر

الموت هو من شباب و شيخوخة له

من يفعل الشر يقتله الشر

لما رأى لوبلان مع صحوته وجه بكر الباكي، أمسك بيده السليمة يد بكر وتوسل إليه:

- اعثر على أختي كاترين أينما كانت...

في صباح يوم من أيام الربيع، لحظة وصول السفينة إلى قافا حيث كانوا يريدون بيع كاترين في إيطاليا قبل أن يفيق لوبلان، فاضت روح لوبلان.

وفي اليوم نفسه، منح أهل القرية الذين تأسفوا على المأساة التي حدثت على الساحل، لوبلان الذي لم يعرف حباً إلا حبه لأخته، منحوه الراحة الأبدية في مقبرة القرية. وخلال بضعة أيام لحق كج الكلب الملون صاحبه. وبكر الذي لم يدَعوه يتزوج بقي بين الأسرتين.

الفصل التاسع عشر

من يفعل الخير يجده أمامه

من يفعل الشر يأخذه الشر

في إحدى الليالي كاترين التي لم يُغمض لها جفن ارتعشت من صوت الازدحام المتصاعد. نظرت من النافذة الضيقة فكان من رأته ليس لوبلان، ولا بكر، بل قرج. قدماه مقيدتان بالحديد ويداه، وفمه مكمم. وإلى جانبيه رجلان عملاقان مثله ووراءهم بانوج ورجل ضخم.

كاترين تقرع النافذة بكفيها الرقيقتين، وتنادي:

- أين لوبلان؟.. لماذا حبستموني هنا؟ ألستم بشراً؟

لم يعبأ بانوج ولا الرومي العملاق غريغوريوس بلهفة كاترين. مرّا من أمام الشباك. حين رموا قرج في السفينة المتجهة إلى مكان تربية السمك من بحر سردينيا، صافح بانوج غريغوريوس راضياً، وعاد إلى سفينته، سأل خادمَه الذي استقبله:

- كيف تتصرف الشركسية التي معنا والتي عينها من السماء؟
- هاجت وهاجت، ثم هدأت.
- متى؟
- قبل قليل.
- قبل ساعة أو نصف نهار.

- عند الفجر.
- تخدعني يا عديم الشرف. – ضرب ظهر الرجل بالسوط القصير، وأكّد عليه: – اعرفْ حالتها!
- ذُعر حامل المفاتيح الذي فتح الغرفة، فأوصدها.
- هذه تحمل خنجراً قصيراً!
- من أين جاءت به؟! – أسرع بانوج بالكلام، تذكر بانوج كلام قرج: الخنجر الصغير الذي كان الأديغة الذين كانوا يطاردون العدو يحمون به وجوههم. كانت النساء يخفينه تحت ملابسهن، صرخ من وراء الباب: إن كنت تريدين أن تصبحي حرة فلا تخطئي بالسلاح الذي بيدك. أيتها الفتاة الشركسية. وسنطلق سراحك دون أن نمد يدنا عليك، وسنُطلعك على الذين كانوا يريدون بيعك لنا.

صرخت كاترين عفوياً من وراء الباب:

- أين أخي الصغير؟
- ارتاحي، سترينه قريباً... – أصاخ بانوج السمع قليلاً، ومازحها: – الآن افتحوا الباب – رأى كاترين مغمى عليها على أرض السفينة قال لمن وراءه وهو ينتزع الخنجر الصغير من يدها: – أسكِنوا معها الفتاة الروسية كي لا تسكن وحدها.

أفاقت كاترين في حضن الفتاة الروسية، فسألت:

- من أنتِ؟ أين لوبلان؟

قالت الفتاة الروسية وهي تضرب صدرها بيدها:

- وأنا أسيرة مثلك. اسمي ماريا جاؤوا بي من ناحية "تانا". وأنتِ ما اسمك؟ والاسم الذي سألتِ عنه أهو أبوك أم أخوك أم حبيبك؟
- أنا اسمي كاترين، أنا كاترين — وأعلمتها بأصابعها أن لوبلان أخوها الأصغر. نطقت اسمها مرة أخرى، وأضافت لماريا: – خدعوني!
- وفيما الفتاة الشركسية والفتاة الروسية تتشاكيان متشابكتي الأيدي، غلبهما النعاس فنامتا أسفل الجدار. ولما أفاقتا عرفتا أن سفينتهما تركت ميناء قافا، ورأتا أمام باب حجرتهما صحناً فيه قطعتا لحم وخبز وجرة من الماء. وقُبيل مساء اليوم التالي وصلتا إلى مشارف ميناء القسطنطينية.[6]

---

[6] كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وكانت في القرون الوسطى أكبر ما في أوربا من دول، وأغناها. وسموا المدينة باسم الإمبراطور قسطنطين فيلكا.

الفصل العشرون

الصديق مرآة

والعدو عين سارقة

لم يغادر بكر البيت عدة أيام معتبراً ما جرى له طعنة لكبريائه. ولم يخرج إلى أرض الدار. وإذا خرج فلخدمة مواشي آل جراجه. وكان يورد حصان قرج أخيه وحصانه وحصان كاترين وحصان لوبلان كلّاً على حدة. ثم ينزّه كل حصان على حدة أيضاً.

في صباحٍ ما حين ذهب بكر إلى بيت جراجه لم يجد الحصان في الإسطبل، والخراف اختفت من زريبتها. وفيما هو يبحث في أرض الدار يائساً لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، نادته لاشن:

- نعم يا بكر، نعم يا ولدي. أحد المجرمين، قطع الله يده، اقتلع أصول آل جراجه. جاءهم الفارس الشقي الليلة، كيف لك أن تقف في طريقه، وسرق الدار الفارغة.

تكلم بكر بصوت مختنق:

كانت المدينة أكثر مدن أوربا على اختلافها سكاناً. وكانت مدخل العلوم والثقافة. شهد القرن الثاني عشر أكبر توسع للمدينة، إذ سكنها أكثر من مليون نسمة.

- أنا ملوم في خربان بيت جراجه.
- كيف يا ولدي؟
- لم أستطع حراسة كاترين ولوبلان.
- نعم يا حسرتي. لا تلم نفسك على عجزك عن حماية كاترين يا بكر. كان الله تعالى قدّر هذه النهاية. ولوبلان حين انتشلته من البحر سهرت عليه حتى فاضت روحه. وأسبلت جفنيه. وأسلمته إلى ربه بالطريقة التي يسجّي فيها المسلمون موتاهم. غمرك الله بعطفه إن شاء الله وتفهّمك.
- توسل إلي لوبلان أن أعثر على كاترين.
- إذا كنت قادراً على هذا فالله العلي الذي يتوسل إليه الجميع ولا يطلب هو شيئاً من أحد قد سمعك، فلا تهمل رجاء لوبلان الذي قضى قبل أوانه. حقاً هذا هو حقاً... أفهم يا حسرتي ما تعاني.

حين انصرفت لاشن دامعة العينين من أمام الباب اعتمد بكر بصدره على جدار زريبة الغنم، وتفكّر في المصيبة التي جرت لآل جراجه: "حقاً لما أبلغت لاشين بمسؤوليتي الجزئية عما جرى لكاترين ولوبلان جفلت لاشِن، ولكن من سيبلغها مسؤوليتي عن أخي الأكبر؟ الوحيد الذي يعرف هذا هو نباب. — دوى الرعد واختفى في قبة

السماء دون مطر ودون سماء. ولكن ماذا كان حدث له الليلة؟ أيمكن ألا يكتفي نباب بما حصل عليه من ذهب وفضة فيضيفَ إليهما هذه الجريمة؟ ليس هناك خاطرٌ يتهيب نباب تنفيذه. وقرج وأنا ما كنا نعرف حقيقته كما كانت جدتنا تخبرنا، جعلناه يُدخلنا ثقب إبرة كخيط جاف الطرفين. إذا كانت المؤامرة من تخطيط نباب فلا بد أنه ابتعد إلى البعيد البعيد. الحصان ممكن، ولكن هل بإمكانه أن يسوق الخراف إلى الأبزاخ؟..".

أغلق بكر باب زريبة الأغنام وإسطبل الحصان والبوابة الكبيرة، وأغلق الباب الصغير، وانصرف من أمام باب آل جراجه الذي لم يعد له صاحب. وفي طريق العودة خطر له أن يمر على خيرت التي كانت على علاقة ما بقرج فمن يدري لعلها تعرف شيئاً. حين دنا من الباب الصغير رأى خيرت ذات الظهر الرفيع والردف الواسع تكنس أرض الدار. وقبل أن يجد بكر الفرصة لينادي، التفتت خيرت وسألت لا تعرف بم تفسِّر ما ترى:

- هذا أنت ابن غشفج؟! هل جئت تغازلني بدلاً من أخيك الهارب؟

- "أنا لست ابن غشفج"، والدي اسمه أبرج، لم يقبل بكر بالتعريض بوالده، وأخي الأكبر قرج لم يهرب. بل أجبروه على هذا...
- لست بحاجة إلى كل ما يصدر من كلام جميل منك! — ردت خيرت على تعريض بكر وقالت له بوجه طلق ومنطق حلو: – وأنت إذا كنت تريد الترويح عن قلبك فادخل البيت.
- لا تأخذي عني مثل هذه الفكرة كأني لا أحترم نفسي.
- مرة أخرى ابتسمت خيرت لبكر بوجه طلق:
- هل تريد أن تقول إنك لا تستجيب لرغبة الأنثى؟
- أجاب بكر الآن بشيء من العداء،
- نعم!
- إذا كنت تقول نعم فلماذا تنافست مع أخيك الأكبر قرج على بنت جراجه الدلوعة؟ – انصرف بكر برأس مخيّ ولسان صامت فنادته من ورائه: – توقف! لماذا جئت؟
- الليلة سُرقت دار جراجه... أتساءل هل مر نباب عليك؟

رفعت خيرت حاجبها، وخفضته، عبست، وابتسمت:

- هذا الذي ذكرت اسمه نباب لم أره اليوم ولا أول من أمس. ولكن لن أخفي عنك أنه كان يموت في حبي من أجل ما لم

يكن قادراً عليه. كُرمى لأخيك المرحوم أقول لك: ابتعد عن هذا الشرير، لن تجني منه خيراً.

- أعرف.
- إن كنت تعرف فهذا هو. أخوك الذي انتكب من أجل بنت آل جراجه فهمتُ أنها تُكنُّ لك من الحب أكثر مما تُكنّ لأخيك. ولكن ما الفائدة من أن يظل الحب الذي انتكبتما، أنتما الأخوان، منه في صدرك؟ من يعرف؛ متى شعرت بضيق قلبك فتعال إليّ. خير لي أن أواسي من أعرفه من أن أنفّس عمّن لا أعرفه، عن أخي الرجل الجسيم الذي كنت أعرفه شاباً لطيفاً حبيب الطبع. – "أخوك الكبير هجر البيت، ستبقى وحيداً في البيت، ربما يمر عليك نباب" قالت خيرت في قلبها وراء بكر.

انصرف بكر من أمام باب دار خيرت شاعراً بالخزي من كلام خيرت ولاسيما كلماتها الأخيرة والتي قذفته بها من ورائه.

شمس الربيع اللطيفة ترتفع رويداً رويداً إلى كبد السماء، وصوت ماجُخ المؤذن يتوزع لطيفاً في أرجاء القرية ويرتفع فوقها، ينهض من تحت الرعد.

دار بكر حول القرية حيث لا بشر، ثم عاد إلى القرية. وطوال هذه الجولة، وفيما يفكر في ما قالته خيرت عشيقة أخيه وما قال لها، جهّز ماء الإبريق، ووجه سجادة الصلاة إلى القبلة حيث الكعبة، ووقف كما يفعل في المسجد، شبك كفيه كما يفعلون في حضرة الله غير المرئي. وقال لله الذي يراه في قلبه "بسم الله الرحمن الرحيم"، ووقف في حضرته باللغة العربية. تلا الأدعية من سورة الإخلاص "لم يلد ولم يولد، ولم يكن كفواً له أحد" وغيرها. وبدأ صلاته بما قاله بينه وبين نفسه. وببضع ركعات وسجدات أنهى صلاته، ثم دعا إلى الله "ارحمني وافهمني يا إلهي العلي، واغفر لي ما فعلت بأخي قرج رغماً عني. ومن فعلتُ لأجلها كاترين التي اعتنقت دينك اسمح لي أن ألقي عليها ولو نظرة واحدة. وأخوها الذي توفيته إليك لوبلان افتح له باب جنتك. وأنت تعرف آخر دعائه لك فدعني أطمئن عليه. "

بعد أن صلى بكر وأكل من بقايا الطعام الذي أحضرته إليه غشفج انشغل بأعمال البيت ريثما يؤذن لصلاة العصر. ولما صهل حصان قرج وهو ينظر إليه بعين ساخطة، قال له:

لا تنظر إلي بمثل هذه العين الساخطة والقلب العاتب. من كنت تحمله على صهوتك هو أخي الأكبر كما قلت لك قبل أيام. لا أدّعي أني لم أندم على ما فعلت... ولكن مع ذلك... – أغلق بكر باب الإسطبل وما لا يستطيع النطق به يخنقه.

لما بدأت الشمس بالانحدار توضّأ بكر ثانية وتوجه إلى الجامع. وقف وراء بضعة المسنين وصلى. ولما انتهوا سأل المؤذنُ ماجُخ بكراً:

- ماذا جرى يا بكر لقضيتكم، أعانكم الله.
- ما جرى على الشاطئ من مأساة تلتها مأساة أخرى. – القليل الذي تركه آل جراجه وراءهم سُرق الليلة.
- نعرف، وقد حزنا لأجلهم. ولا تعرف بم نحكم عليها وماذا نفعل لأجلها. كائناً من كان الفاعل فالله العلي العظيم لن يقبله منه. وسيدفع ثمنه. ما لا أفهمه أنا هو كيف تغلبوا على قرج ذي القوة الخارقة.
- خدعوه.
- ها، هل يمكن لبانوج أن يفعل هذا؟ ليس بانوج، بل نباب.
- سبحان الله، سبحان الله (بالعربية)، هل هذا ممكن؟! كنت أقول في نفسي: ربما عاد نباب إلى موطنه الذي جاء منه شاعراً بالعار

إذ كيف لم يستطع حماية صديقه. إبليسُ هذا ماذا فعل بنا نحن القرية كلها! أيكون هو من سرق ميراث آل جراجه؟

- ليس عندي شهود على هذا. ولكن لا أثق به.
- هذا الشيطان لا يمكن أن تثق به، وإن وثقت به فالله تعالى لن يقبل منك. ماذا إذن ينوي بكر الذي خلقه الله العلي العظيم أن يفعل لأجل أخيه؟
- أترك نباب لإلهه العلي القدير يا ماجُخ. وأخي الأكبر الذي ليس له غيري هل أتركه دون أمل؟ أنوي أن أتابع قضيته.
- يا بكر يا من ندعو الله أن يرضى عنه، وأنا راضٍ عنك. وتثبت إخلاصك ورحمتك تجاه أخيك الأكبر وتجاه آل جراجه. ونحن سنتعاون على تأمين ما تسافر به من المال.
- عيّشكم الله! عندي في داري ما يكفي نفقات سفر من خيل وأغنام. – قال بكر للمؤذن ماجُخ أن عنده من الذهب والفضة ما يساوي ما تقاسمه مع نباب.

الفصل الحادي والعشرون

الخبر الكاذب يخدعك

من خدعك مرة يخدعك ثانية

قال بانوج لنفسه وهو يراقب الأمواج الصغيرة المتلاطمة من قسمي البحر الذي يقسمه البوسفور في نواحي أوربا وآسيا: "عملت خيراً إذ لم أسمح لقافا الجشعة أن تخدعني في أسعار بناتي الأسيرات. حتى لو لم أكسب من قرج، الرجل الضخم واسع الشدقين فأنا لا أندم على السعر الذي بعته به إلى الرومي غريغوريوس، كان سيصمُّنا أنا وركاب سفينتي. يا للروم الملاعين الذين كانوا يساومونني في أسراي الثلاثة! وهل العرب والألبان أحسن منهم؟! وكذلك الأتراك والأرمن والكرد يضحكون في وجهك ويمدحونك فيخدعونك..."

بعدما قطعوا دَرَبَنْد وأبحروا في بحر سردينيا نصف يوم، وفيما بانوج يمر بالبنات الأسيرات المجتمعات على أرض السفينة، نادى كاترين:

– هل ترين هذه الجزيرة أيتها الفتاة الشركسية؟

– ما أحوجني إليه! – أجابت كاترين بقلب محروق.

– وكيف لا تحتاجين سردينيا الجزيرة.[7]... حبيبك قرج يعيش فيها...
ابتسم بانوج وقال لها وهو منصرف:

–إذا أردت أنزلناك من السفينة لأجله. ماريا التي شحب وجهها سألت كارين:

– من هذا الذي ذكر اسمه؟
– هذا هو الأخ الأكبر لبكر الذي أتيتِ لي على ذِكره، هو من خدع نفسه وهو يخدعني.

الفصل الثاني والعشرون

تأمل الخير وأنت تصنع الشر

تستطيع عضّ مرفقك ولو كان قريباً

قرج نعس طوال الليل مرة واحدة، وتحسن حاله حين قدموا له الفطور، فهو يقرع الباب بقبضته التي تساوي مطرقة الحداد، ويصرخ:

– أين الرومي؟ هاتوه حالاً لي!

---

[7] جزيرة سردينيا تقع غرب بحر سردينيزمنه. قبل تيبرا في أواخر القرن الحادي عشر كان كارفاغين قد احتل أجزاء منها، ثم احتلها الروم كاملة، أصبحت الجزيرة محل صراع بين جنوة وبيزا وأراغون. وفي عام 1324 دخلت في مملكة سردينيا. ثم اتخذت الاسم الإيطالي.

حين فتح غريغوريوس الباب أكّد على زملائه:

- قيدوا يديه مثل رجليه!

قال قرج الذي سمح بتقييد يديه بهدوء لغريغوريوس:

- بانوج الجنوي، بانوج الشيطان. كان الروم والأديغة يتعاملون ويتشاركون ولكن لم أتصور أن هذا لن يمنعه من أن يعاملني مثل هذه المعاملة.
- ماذا تريدني أن أخدمك؟
- تصرَّفْ معي كأننا لم نكن يعرف أحدنا الآخر. أين إنسانيتك؟
- اسأل نفسك هذا السؤال. التاج ليس إنساناً – إنه مُلك. هات تكلم، أسمعك.
- سأقول لك أيها التاجر: لو كنا يوماً متساويين فأنا الآن مقيد اليدين والرجلين، وأنا راجل. وأنت راكب محاطٌ بالحماة.
- أوجِز كلامك!
- عندنا سرٌّ مشترك. لا أريد أن يسمعنا هؤلاء!

عندما بقي الاثنان وحدهما سأل غريغوريوس قرج مهموماً بما سيقولون له:

- ما السر الذي يمكن أن يكون لك معي؟ استسلمتَ بسرعة، ألم تقل إنه لا مكان لا يمكنك ألا تعود منه؟!
- والسيف يُفلّ أحياناً.
- ويمكن لامتداح النفس أن يَعيبك.
- أتراني بهذا اللون؟
- من يوم ما عرفتك، – قال غريغوريوس لقرج، وقال لرفاقه وراءه: – هاتوا لي مقعداً أجلسْ عليه، وهذا أيضاً لا تدعوه واقفاً، أجلِسوه!
- قرج الذي وضعوا أمامه مقعداً وطيئاً قال لغريغوريوس باعتزاز لافاً رجلاً على رجل.
- إن كان شرفك يقبل أن أجلس أمامك مقيداً فسأجلس.
- أظن أنك لم تفهم إلى الآن وضعك.
- مقيَّد في سفينتك، وعلى سطح البحر.
- يا قرج. قال قرج في نفسه وهو يلوم غريغوريوس "إنه يسخر مني بعدما عملوا بي ما عملوا... بانوج تاجر، وهذا شارٍ. من أوصلني إلى ملك هذين؟ أقول: بنت جراجه، غير أنها مثلي بقيت راكبة معي في السفينة حتى وصلنا إلى قافا. وأخوها الصغير ألقوا به أمامي في الماء. الأسئلة التي لم تفارق ذهنه في

الأيام الماضية طفت على السطح من جديد رغماً عنه: – أين هو نباب؟.. لماذا بقي على البر؟ وبكر؟ لن تقبل جدتي التي التحقت بالسماء سلوكي مع هذا المسكين. ما مصير أخي الصغير يا ترى؟ مَن غيرُه في قريتي شلج يشفق عليّ؟ من جهة خيرت المرائية فالنوم على الفراش يمسح همومها... من كنت أشفق عليه وأحميه نباب أيمكن ألا يشفق عليّ؟ أيمكن أن ينساني؟"

قطع غريغوريوس أفكار قرج المتدافعة:

- أنت تجلس أمامي ولكنك في مكان بعيد. أستمع إلى سرك.
- هل تحرريني إن دفعت مئة ضعف ما اشتريتني به؟
- ضحك غريغوريوس من أعماق قلبه:
- من أين ستأتي بكل هذه الثروة؟
- هذا من شأني.
- سأل غريغوريوس قرج باحتقار، وبابتسامة:
- هل تعرف أنت مثل ماذا؟
- سأعرف إن قلت لي.
- اسمع إذن. كان ملك وحوش الغابة الأسد يمشي للصيد، وفيما هو يمشي وطئ جحر فئران، ولما رأى الفأر هذا صاح بالملك

"من حظك أني لم أكن في الجحر" "وماذا كنت ستفعل لو كنت فيه؟" "كنت أوقعتك في الجحر، ومزّقتك فيه" لم يرد الأسد وتابع طريقه. نظر الفأر إلى آثار الأسد: "لو سمعت الوحوش الأخر بحواري مع صاحب هذا الأثر لهربوا جميعهم"

- رويت لي خبراً يهينني...- ردّ قرج على راوي الخبر دون أن تطرف له عين: - إن عاتبتُ من لا شعور لديهم بالكرامة فلن يفهموني. والآن اسمع الخبر الذي يصحي أمثالك وأمثال بانوج: مرة مرض ملك تلك الوحوش مرضاً ثقيلاً. فعاده سكان الغابة. ولكن الثعلب غاب عن الزائرين. كان يسترد دينه من الدجاجات.
- في أحد الأيام جاء الذئب يسأل عن الأسد، فقال له: "أيها المحترم كل من في غابتنا من الوحوش يحبونك ويحترمونك. زاروك في مرضك، بذلوا كل جهدهم ولكن واحداً منهم لم يهتم بك. "من هذا" "الثعلب" "ها، سأعاقبه بما يستحق" سمع القنفذ ما دار بين الأسد والذئب فأبلغ الثعلب. والآخر انطلق لعيادة الملك المريض. "ماذا عندك من شاغل أهمَّ مني؟ لماذا لم تعُدني في مرضي؟" "يا ملكنا العظيم أيها المحترم، إن لم أهتم بك فبمن أهتم؟! أليس ما أخرني إلى اليوم موضوعك؟ كان بإمكاني مثل

كل من عادوك أن أتظاهر بالاهتمام بك، ولكن قلت في نفسي: هذا لن يفيد فانطلقت باحثاً عن الدواء، وشاورت الأطباء" "وهل وجدت الدواء؟" "نعم وجدت. إن جعلتهم ينتزعون كعب الذئب وأكلته كان فيه شفاؤك"

- انتزعوا بأمر من الأسد كعب الذئب وأطعموه للملك. فعاد الذئب إلى عرينه بثلاث قوائم. رآه الثعلب فسأله: " ماذا جرى لك يا ذئب؟ " " لا تفعل الشر وتنتظر الخير " هل فهمت أيها الرومي؟
- كما فهمتَ ما رويتُ لك فهمتُ ما رويت لي. وماذا بعد؟
- وماذا سيكون؟ اقبلْ بالمـُلك الذي عرضته عليك. إن رأيته قليلاً فسأضيف إليه بقدر ما تريد. وننهي موضوعنا هنا.

الجالس أمامه كأرومة يابسة لا أمل فيها جعل غريغوريوس ينتفض:

- هذا ما عندك!.. جيبتك فارغة.
- هذا فراغ مؤقت. نعود إلى قافا التي حملتني منها، وتأتيني بأخي بكر أو بصديقي نباب، أقول لهم أين ثروتي، يأتونني بها فأعطيك إياها. ماذا تريد الآن أكثر من هذا؟
- أقول لك: هل أنت واثق بالاثنين اللذين ذكرتهما لي؟ أتساءل فقط، ربما تكون مخطئاً.

- نعم، نباب هائم على وجهه ولكن كيف لا أثق بأخي بكر؟! _ قفز قرج من مجلسه وعاد إليه فتكسرت الأرومة تحت جسده الممتلئ.
- توقعت أن يحدث لك هذا... – نهض قرج بقلب بارد دون أن يكشف عن السر الذي بين غريغوريوس وبانوج، وخرج.

الفصل الثالث والعشرون

مَن وجهُه نظيف فقلبه نظيف

الحبيب سهلُ الخداع

ترسو سفينة بانوج التي تظل الأمواج تتقاذفها طوال الليل في خليج جنوة. من بعيد تبدو سلسلة جبال أبينين[8] التي بدون ثلج، ومن مراعيها بين الغابات الخفيفة تبدو البيوت البيضاء، وأما السفن المختلفة أحجامها فهي متجمعة في الخليج ذي شكل النعل.

- ها نحن نصل إلى جنوة، – قالت كاترين.

---

[8] تقع مدينة جنوة على شاطئ خليج سردينيا المواجه لجبال أبينين المنخفضة. هذا المكان لم تكن فيه مياه جوفية أو ثروات معدنية. والجبال التي كانت تحيط به كانت تحمي مناطق الزراعة من الريح الشتائية الباردة. من الناحية الاقتصادية والناحية السياسية لم يكن عندهم إلا جنوة كان الجميع تقريباً أحراراً في دخول الخليج. ولما كان العمل الذي يمارسه أهل جنوة هو التجارة البحرية كتب ليوناردو دو دافينشي: " إذا كنت تريد أن تعرف ما هو البحر فاسأل أهل جنوة".

- من أين تعرفين؟ – سألت ماريا كاترين؟
- ليس على ألسنة حرسنا إلا جنوة. ألم يخبرونا أن نتحضر؟
- إذن هذه التي تظهر هي جنوة. – نظرت ماريا إلى كاترين مبتسمة، ومدحتها كما يقال في الروسية: إيكاترينا، كاتيا، كم أنت فتاة ذكية.
- هل أكون ذكية إذا كررت الاسم الذي كان يتردد على مسامعي! — قالت كاترين لمن صارت صديقتها، وأضافت: – إيكاترينا، كاتيا، اسمان سهلا النطق. ولكن ناديني بالاسم الذي كان والداي وأخي ينادونني به: كترين! لن أنسى صوت المكان والشعب الأديغي — الشركسي الذي أنا جزء منه. سيبقى في قلبي دائماً.
- أعِدُك، ولكن إذا صرت أهذي أحياناً فسامحيني.
- حسنٌ ولكن لا أعرف إن كان الشاري سيشترينا معاً.
- لا تفكري في هذا يا كترين!
- وأنا لن أفكر في هذا يا أختي، أعِدك، – قالت كاترين، ثم بعد وقفة قصيرة قالت لنفسها وماريا تسمع: – هل سردينيا التي تكلم عليها بانوج بعيدة عما يأخذوننا إليه يا ترى؟

- ماذا؟ – استغربت ماريا ما سمعت – ألم تقولي إنه لا فائدة لك في هذا الكلام؟
- كانوا يمسكون بقرج في تلك الجزيرة.
- لا أعرف... هو الآخر أسير مثلنا... أليس من شعبي...–

صحت كاترين وقالت لماريا: لا تهتمي بما خطر لك... أملي أنا شخص واحد – أخي الأصغر لوبلان.

- وبكر؟ ألستِ من تقولُ إن الحب نار هائلة يا كترين؟
- هذا يبعث الدفء إن كان أمام عينيك أم لا...إن لم تلهبيها تصبح رماداً. الحب كالإنسان الطيب سهل الخداع.

الفصل الرابع والعشرون

هاتان وإن لم تلدهما أم واحدة

فالمأساة جعلتهما أختين

سوق الرقيق في جنوة.. وإن كانت مثل كل أسواق الرقيق، فهي نشيطة، تُفزعك، تشتريك وتبيعك.

ما يحدث في جوف الأرض محزنة لشمس الصيف، تقرص من داخل السماء الباهتة.

قال بانوج للأسيرتين المتماسكتين بقوة:

- أنتما لم يشترِكما أحدٌ على مزاجكما. وأتملصُ من الوعد الذي وعدتكما به الآن. سأبيعكما واحدةً واحدةً.

تماسكت كترين وماريا بقوةٍ أكثر الآن. ولكن سؤال الرجل الذي اقترب منهما أفرحهما:

- هاتان الآنستان، كم تساوي الواحدة منهما؟
- هل تسمع يا بيرو ما يقول هذا؟ – سأل الشاب ذو الثلاثة والعشرين عاماً الطويل القامة، سأل أنطونيو، واختتم: – سنشتري الاثنتين.
- في اليوم نفسه صار الأب والابن ومعهما البنت الشركسية والأخرى الروسية على طريق فلورنسا.

الفصل الخامس والعشرون

الحب مدعاة للضيق

من يضيق قلبه يأكل الملح

مضى أكثر من ساعة على العربات ذات الحصانين كلٌّ وراء الأخرى. والشمس التي بدأت تبرد مالت إلى الغروب. في العربة الأولى الأب وابنه: على يسار أنطونيو يجلس بيرو. صاحب الجفنين

السميكين يلقي من حين إلى حين، نظرة على والده الجالس في الأسفل، ويتسمع إلى صوت باب العربة التي وراءه.

عبّر أنطونيو عن قلقه الخفي لولده وهو مغمض العينين:

- كل شيء جرى جيداً. بيرو كل المشكلة أني تعبت قليلاً من العمل الذي أنجزه كاتب العدل الخاص بك. أنا مسرور، راض عنك.
- شكراً لن أخذلك.
- لست وحدي، أمك وأختك فيولانتا وأخوك الأصغر فرانشيسك، كل الأسرة تعتمد عليك.
- كان بيرو مرتاحاً للكلمات التي سمعها، ولكن قلبه وعينه كانا في العربة التي خلفهما. التفت مرةً، ولم يكف هذا فالتفت مرة أخرى. وفي الالتفاتة الثالثة سأله والده بجفنيه الثقيلين غير المهمومين بشيء:
- ما أخبار الذين تلتفت إليهم؟
- وراءنا؛ ما الأمر؟
- يخيَّل إلي أنك قلق عليهم... تعرف جيداً أنهم بشرٌ ولو كانوا أسرى. توقف أنطونيو قليلاً والآن أضاف بجفنين مفتوحين:

- لا أوافق على بيع الإنسان! يُخيل إلي أنهم باعوني وعادوا فاشتروني...
- لاطف بيرو والده:
- ومع ذلك اشتريت الفتاتين الأسيرتين اللتين لا نعرف أصلهما.
- ولماذا لا أشتري؟ في الورقة التي اشتريتهما بها اسماهما وأصلاهما. الفتاة الصبوح من شركيسيا، واسمها كاترينا. والأخرى الشقراء ماريا من روسيا. ماذا تريد أن تعرف أيضاً؟ مهلاً مهلاً بيرو أتكون إحداهما أعجبتك؟..- سأله أبوه في نوع من المزاح.
- لا، لا... — ربما لم تأكلا شيئاً طوال النهار. - رد على والده وأمام عينيه ترتسم الفتاة الصبوح الجميلة التي لها عين من السماء.
- وأنا فكرت في ما قلتَ. لكن لا أعرف لم ارتجفتَ من ذكر الفتاة التي شككتُ فيها... — وأضاف إلى كلامه: - لم أر مثل هذا عندك. أنا كنت تجاوزت الثلاثين حين أسستُ أسرة. ولكنه أنا الذي فعل هذا. مثل ذاك الزمن هو ما كنا نحيا فيه. وزمانكم مختلف. تعيشون وأمامكم اليوم التالي ليومكم. اسمع: - طرقَ السّير أنطونيو على ظهر العربة البيضاء بطرف العصا: لا تتجاوز ذلك الفندق. سنتعشى فيه ونستريح ليلتنا وننطلق مرتاحين.

وأنت يا بيرو عالجْ مشكلاتك التي تزعجك. وكما قلت لك، هل فهمت؟ وهؤلاء، أقصد الأرقّاء بشر. وهما صبيتان شابتان. لا تقلق! هاتان لن تبتعدا. وإن هربتا فستندمان. لن تجدا أسرة مثل أسرتنا.

- لا يتذكر بيرو ووالده أنهما تحدثا يوماً بهذه الصراحة. لم يكن الأب يتحدث عن موضوع الأسْر بل لا يرضى أن يجري الكلام فيه في حضوره. في موسم قطاف الزيتون وقطاف العنب ما كان يسمي العاملين معه بالمأجورين بل بمساعديه النشطاء. لا يعرف لماذا اشترى هاتين اللتين حزن لأجلهما. ولا ماذا سيفعل بهما. في سوق الرقيق " ما كنا لنرتاد سوق الأسرى. كنا نقترب منها وفجأة عدنا فدخلنا. مهلاً مهلاً أتكون إحدى الفتاتين أعجبتك؟! "الفتاتان اشتراهما بأول سعر عُرض عليه. والآن" هاتان إنسانتان؛ اخدُمهما بما تحتاجان إليه" يقول لي والدي وإن كان مظهره عابساً. رحيم جداً وملاحظاته عميقة. كلتا الأسيرتين جميلة حتى لَيصعبُ الاختيار بينهما. ولكن تلك السمراء ذات الوجه الصبوح... ياه ماذا جرى لي..."

مرة أخرى قال أنطونيو لابنه:

- ما الذي تفكر فيه، اتركني أنا، نفِّذ لهؤلاء ما طلبوا منك!

- استأجر بيرو بيتاً لكاترين وماريا بعيداً عن البيت الذي سيبيت فيه والده. الفتاتان اللتان عاد إليهما الوعي المعتاد، واعتنيا بمظهرهما نوع اعتناء، أخذهما إلى المطعم للعشاء. والثلاثة تعارفوا بالأسماء وهم يجهزون مائدة لأنفسهم. ولما اقترح عليهم بيرو أن تنفرد الفتاتان بالطاولة لتأكلا على راحتهما، ويستقل هو بطاولة، أجابته كاترين بالكلمة الإيطالية التي تعلمتها:
- غراتسييه (شكراً)

في اليوم التالي، حين دخلوا أرض فلورنسا، سأل بيرو والده:

- اسمح لي أن أجلس مع ركاب العربة الأخرى، سأعرِّفهما على المكان الذي ستقيمان فيه.
- حسناً إن كنت تفهم لغتهما...- ابتسم أنطونيو، وسمح لبيرو، وقال في إثره: - ليس إلى فلورنسا ولا إلى بينجي، بل طريقنا إلى قريتنا أنكيانو.

- بعد الظهر، وبعدما اجتازوا من جهة اليسار بينجي[9] حيث يعمل بيرو انتصبت أمامهم قرية أنكيانو متناثرة على السلسلة.

عرض بيرو بيتاً كبيراً يبدو من بين الأشجار على كاترين وماريا:

- تفضّلا، هذا هو بيتنا الذي تريانه بين الأشجار.

لم تكن الفتاتان تعرفان ما المقصود بـ"تفضلا"، ولكنهما فهمتا أنها كلمة لطيفة فابتسمتا. واستقبل أنطونيو ابنه الأصغر فرانشيسكو، وفيما يعانق الأخير أباه قال لزوجته ليوشيا وابنته فيولانتي:

- لا تدعا هاتين الفتاتين في الخارج، أدخلاهما إلى الغرفةَ!

كان كلام أنطونيو في شأن الفتاتين اللتين بيعتا في سوق جنوة قصيراً ورغم ذلك فقد سرت في الأسرة روح المراقبة والتساؤل. وكانت فيولانتي منبع هذه الروح. همست لأمها ليوشيا وهي تجهز لفراش لها:

---

[9] بينجي واحدة من أجمل المدن الصغيرة في فلورنسا. يعيش فيها أكثر من أربعة عشر ألفاً. منذ عام 1263 كانت أراضيها تحت سلطة جمهورية فلورنسا. سكان برابه، سكان القلعة، على عادة من كانوا محتلين أرضهم، يعدون أنفسهم أحراراً. منذ منتصف القرن الرابع عشر، المدينة القائمة في الجبال الخضراء التي ينبت فيها الزيتون والعنب، لم يحدث فيها تغيير كبير. وبقيت الدار التي كانوا يملكونها على حالها. وبسبب شكلها يسميها أهل البلدة بالسفينة. في قلعة غوندي التي تجري فيها الاحتفالات الدينية والابتهالات لا تزال كنيسة "سفيات كريست" التي بنيت في القرون الوسطى.

- ما قصة الفتاتين الصامتتين اللتين جاءنا بهما بابا وبيرو.

تبتسمان لنا، ولا تفهمان ما نقول لهما. ولا نفهم ما تقولان.

- ألا تعرفين طبيعة والدك؟ ألم يخبرنا أنهما أسيرتان!
- إن كانتا أسيرتين فلتبقيا في مكانهما. هل علينا أن نضيفهما في بيتنا؟ ألا ترين كيف يخدمهما بيرو ناسياً نفسه؟
- فيولانتي! – كانت الأم توافق كلام ابنتها في سرها ولكنها قالت لها: – لا تكوني عديمة الرحمة... لو كنتِ مكانهما ماذا كنت تفعلين؟ لا تحاولي أن تحللي قضيتهما. والدك رجل حكيم، سيجد لهما مخرجاً. تصبحي على خير يا بنتي!

في المساء وكأن أنطونيو يعرف الحديث الذي دار بين الأم وابنتها. قال لفيولانتي التي كانت تحمل إليه إفطاره:

- نادي أمك واجلسا كلتاكما هنا. عندي كلام معكما بشأن ضيفتينا.
- وهل أنادي بيرو؟ – أضافت فيولانتي اسم أخيها الأكبر.
- لا. ليسافرْ هذا إلى فينجي! تنتظره أعماله ككاتب بالعدل. وهو يعرف ما سأقول لكما. – والآن قال أنطونيو ذو الذقن القصيرة البيضاء لزوجته وابنته باختصار: – أشفقت على الفتاتين الأسيرتين اللتين جعلتهما تقضيان الليل معكما فاشتريتهما من

سوق النخاسة. ستعيشان معكما حتى يعود إليهما الوعي تفعلان معكما ما تفعلان، وتقولان ما تقولان. أنوي أن أشتري لهما حريتهما حسب العادة، وأن أعيدهما إلى البلاد التي جاءتا منها.

- ولكن، – أسرعت فيولانتي بالتدخل — هاتان لا تعرفان لغتنا.
- وأنتِ جئتِ إلى الدنيا لا تعرفين لغة أبيك وأمك. – علّمِاهما لغتنا، وتعلّما لغتهما. ليس هناك لغة ثقيلة. تصلح اللغة بينكما، وقد تفسد. ولكن ليست هذه لغة العامة، بل لغة البلدان المتخاصمة، ولغة كبار الرجال. هذا الكلام الذي قلته لكما قولاه لفرنشيسكو الذي يكاد يتخذ قالب الرجال.

الفصل السادس والعشرون

الصدق دواء والكذب جريمة

الكلام الصريح والوقاحة سواء

لم تصدِّق كاترين وماريا توقعات فيولانتي: أفاقتا مع شمس الفجر حافيتين، وخرجتا من البيت. كاترين كما كانت تفعل في قريتها شلج البعيدة عنها أخذت المكنسة المؤلفة من عيدان مربوطة بعضها مع بعض، والمسندة إلى الشجرة، وبدأت تكنس في الدار الغريبة. ولم

تكن ماريا عاطلة عن العمل. مسحت المقاعد الموضوعة في الظل. لما رأت فيولانتي الفتاتين الأسيرتين قالت لأمها مستغربة:

- انظري يا أمي ماذا تصنع هاتان الفتاتان. تنظفان أرض الدار.
- وهل دارنا وسخة؟..- سألت ليوشيا ابنتها، وقالت لها: - شكراً لهما إن كان لهما مثلُ هذه الفطنة. هيا أيقظي بيرو، ربما استغرق في النوم. عليه أن يذهب إلى عمله.
- لا، لن يغرق في النوم، ها هو يتكلم معهما كأنه يعرفهما العمر كله، ومشتاق إليهما.
- ماذا يقول لهما؟
- وكيف لي أن أعرف! يتكلم إليهما بإشارات الخرسان... يا بيرو فطورك يبرد!
- بعدما انتهى بيرو من الطعام وإلى جانبه أمه ليوشيا وأخته فيولانتي، قال لهما:
- أنا في طريقي إلى مكان عملي في فينجي. — وفي لحظة خروجه توجه نحو فيولانتي أكثر من غيرها، وقال لهما: - لا تهينا الفتاتين.
- لا تقلق، - أنجزْ أعمالك براحة بال.

فيولانتي التي كانت تنادي من النافذة قالت لأخيها الأكبر مع انطلاق العربة، مُسمِعةً الفتاتين:

- ابحث في فينجي عن شخص يعرف اللغتين الشركسية والروسية!
- ألم يقولوا لك يا فيولانتي ألا تكلمي أخاك الأكبر بهذه الطريقة؟..
- ألا يجب أن نعرف طبيعة هاتين الفتاتين؟
- ألم أقل لك لا تتدخلي في أعمال والدك؟
- هل تعرفون ماذا سيجري لكم وأنتم تقولون هذا؟.. بيرو الفتاة التي ذكرتم اسمها له سنكسب بسبب اسم عائلتها عيباً لا يُمحى. لن أسمح بأن يحدث لكم هذا ولو لم يبق غيري.

اتضح ما كانت تتوجس منه فيولانتي خلال أيام. بيرو لذي كان يتأخر في العمل صار يعود بعد الظهر أو مساء مع الغروب، وصار يسأل عن الأسيرتين. يأتي على لسانه اسم كاترين الفتاة الشركسية في السمراء الصبوح أكثر من ماريا الروسية. ومن أجل استغلال هذا الموقف تحاول فيولانتي الكلام بالأصابع مع ماريا ولكن ماريا تُريها إبهامها من أجل كاترين التي صارت أختاً لها، ولا شيء غير الإبهام. تتصرف فيولانتي هكذا مع الفتاتين ولكنها لا تجد في طبعهما وسلوكهما ما يدينهما. تظن أنها تحمي بيرو منهما، تتذكر كلام أمها

" لو كنتِ مكانهما ". مغلوبة "بمعرفة كل معاني الأنوثة" تصبح أقرب إليهما. ووافقت أمه على ضرورة تبديل ملابسهما القديمة.

في صباح ما قالت فيولانتي لبيرو الذي كان يستعد للذهاب إلى العمل:

- خذني معك إلى فينجي، لن أكون وحدي.
- آخذك ولكن لا أعرف من ستكون معك. – أجاب بيرو مستغرباً طلب أخته.
- أنا وكاترينا وماريا. ألن تتسع لنا عربتك؟ لا تستغرب! يا أخي. نحن أعطانا بابا وماما وفرنشيسكي إذناً لنتنزه في فينجي. سنكون وحدنا لن نجعلك تخطئ.
- ولو خطّأتموني، – التفت بيرو بوجه فرح إلى كاترين، وقال: – لن يحدث شيء لعملي. وسأقول لك شيئاً آخر، لم أنس رجاءك يا فيولانتي: وجدت امرأة تترجم إلى الشركسية.
- أين هذه المرأة؟ وهل تعرف لغة ماريا الروسية؟
- نعم، تعرف. وإيطاليتها ممتازة. وروسيتها أيضاً. اتفقنا أمس أن نلتقي في محل عملي.

قال بيرو للمرأة الخمسينية التي كانت تنتظره في العمل مترجمةً:

- هاتان الأميرتان الجميلتان هما كاترين وماريا.
- من مِنكما الفتاة الشركسية؟
- حين تكلمت كارزاتي باللغة الشركسية انفجرت كاترين بكاءً ثم عانقت المرأة التي من قومها. — لا تبكي يا أختي الجميلة، هؤلاء الطليان الذين اختلطتما بهم ليسوا سيئين. وها أنا كما ترون أعيش بينهم. — والآن تقول لماريا بالروسية: - وأنت يا أختي من أي جهة جاؤوا بك؟ لا تبكي يا أختي، لا تبكي! هؤلاء الطليان أناس طيبون. إن تعلمتما لغتهم كما تعلمتُ أنا فستنسجمان معهم، وسيحبونكما، - سألت كارزاتي الآن بيرو:
- بِمَ يمكن أن أخدم هاتين الآنستين الآن يا سيد؟

أجابت فيولانتي التي لم تكن تساهم في الحديث على كارزاتي المترجمة:

- سترافقيننا اليوم. إذا وافقت سنرسل إليك العربة كل يوم إلى قريتنا أنكيانو، ستكونين مترجمةً لأسرتنا.

ارتسمت صورة لوبلان فجأة في عيني أخته كاترين دون أن تعرف السبب فاكفهر وجهها ودمعت عيناها. وبيرو لذي انتبه إلى هذا نظر في وجه أخته متلهفاً.

الفصل السابع والعشرون

ما يستطيبه القلب تستحليه العين

من يحبك يشبّهك بروحه

الحب يخلق فجأة في غمضة عين. يشبه ما تراه في ريف الربيع الزاهي بتنوع ألوان أزهاره. في العين كلها جميلة، ولكن ما يختاره القلب منها واحدة.

في جنوة كان سوق الرقيق في الربيع متنوعاً، ولكن بيرو لم يكن يرى أي شيء يشرح قلبه وعينه. ومن بين الفتاتين الأسيرتين اللتين امتثلتا لعينيه انتفض قلبه لمرأى الفتاة السمراء ذات الوجه المشرق. "والدي اشترى الفتاتين كأنه قرأ أفكاري. ينوي أن يعيد شراءهما بكتاب رسمي، ثم يطلق سراحهما إلى بلادهما. متى سيحدث هذا؟ هذا يستغرق لا نصف سنة بل سنة كاملة. سنعلمهما لغتنا عن طريق المترجمة، والآن يمكننا التفاهم معهما بالأصابع وباللسان. لم نعد لاهم ولا نحن بُكماً. حتى فرانشيسكو يتفاهم معهما بأفضل منا. يعرف بمساعدة المترجمة بعض الكلمات الشركسية والروسية. وفيولانتي؟ هي الأخرى ماذا بإمكانها أن تفعل؟ استسلمت للأمر الواقع. قبل أيام غيرتا ملابسهما بمرافقتها في محلات فينشي، وأعطتهما بعضَ ملابسها. ولكنه يأتي دائماً على سيرة الفتاة التي جعلتْها صديقة لي.

- ألا تفهمين يا فيولانتي ما يختارها القلب؟ هي امرأة واحدة. ولذلك فالقلب ضعيف، لا يعرف التمييز بين أجناس البشر ولا يهتم بتنوع اللغات. كنت أعرف الجنس الشركسي وأنه يعيش في هذا العالم ولكن لم أسمع لغتهم، ولم أر ابنتهم ذات العين السماوية إلى الآن. ما كنت أعرف كيف أنطق كلمات الحب في لغتهم، ولكني فهمتها بنظرة خاطفة. ستقول لي كاترين " تفضل إلى بيتك"، وأنا أرد بلغتهم " عيّشك الله ". وماريا التي تعتبرها أختاً ستبتسم لي محتفية بي ". وقبل أن يصحو بيرو من أفكار الحب وصل إلى دارهم في أنكيانو. ولما خرج من العربة ليساعد كاترين التي تفتح له الباب سمع الكلمات التي كان ينتظرها دائماً بالإيطالية:
- تفضل يا سيد!
- شكراً الله يعيشك. – أجاب بيرو كاترين بالإيطالية والشركسية. وابتسم لماريا التي كانت تبتسم له.
- قالت فيولانتي التي رأت المنظر، وهي تطعم أخاها الأكبر:
- دعنا نذهب في الأحد القادم إلى فلورنسا!

سأل بيرو أخته بلامبالاة:

- ماذا سنفعل فيها؟

- مضى زمن غير قصير على آخر زيارة لنا إليها...- وفيها شخص يحب أن يراك... هل نسيت؟
- رفع بيرو رأسه فجأة عن الصحن، ولكنه سرعان ما عاد إليه الوعي:
- الأحد القادم، والتالي له، وطوال هذا الشهر لن أستطيع هذا.
- ماذا؟ – سألته فيولانتي وقد ظهر على وجهها استغراب ما سمعت.
- ألا ترين أني غارق في أعمالي...
- إذا كنت غارقاً في العمل فلماذا تُسرع عائدا إلى البيت بعد الظهر؟ أنا أم بابا أم ماما أم فرنشيسكا من تشتاق إليه؟ أم تلك التي تفتح لك الباب؟
- أسرع بيرو بالرد وقد احمر وجهه من الإهانة:
- يا فيولانتي! — ثم أنهى بصوت ألطف: – لماذا أنت هكذا يا أختي الجميلة غيرت ما قلت وما فعلت قبل أيام... ظننتُ أنك ستفهمينني... لا أعرف من أين جئت بالفتاة التي من فلورنسا. ألم تفهمي أني لا أطيق رؤيتها.
- الثروة تجعل منك هرِماً، ولا تحلّيك. لا تذكري لي شيئاً آخر.

- أنتِ تدينينني ولكن – لامت فيولانتي أخاها الأكبر دامعة. – وأنت سرعان ما تغيرت... لا أُجبرك، كما تريد. ولكن ماذا ترى في الأسيرة التي جاءتك بالصداع ولا نعرف أصلها، أيكون السبب جمالها فقط؟
- لا، ليس هذا وحده – لم يدع بيرو أخته تكمل كلامها.
- حسناً، حسناً – قالت فيولانتي الآن بلهجة ألطف لأنها اقتنعت بأن أخاها مصرٌّ على رأيه. – إذا كنت ترى فيها جوانب أفضل منها فستوافقك ماما أيضاً. ولكن بابا لن يقبل منكم.

حين صدر من فيولانتي ما كان يتوقعه ويسبب له الهم جلس بعض الوقت مرتاعاً، ثم قال لأخته بصوت منكسر:

- أنا كنت أظن أنك ستقفين إلى جانبي في مواجهة بابا.
- الآن كلمت فيولانتي أخاها بنبرة ألطف:
- هل رفضت مساندتك تجاه بابا... – قالت فيولانتي لماريا التي قرعت الباب حاملة الشاي: – شكراً يا ماريا كنا محتاجين جداً إلى هذا. أين أختك كاترين وماذا تفعل؟
- تكوي الملابس لبيرو وفرانشيسكا.

التفتت فيولانتي إلى بيرو كمن لم تتلق جواباً، وخرجت ماريا من الغرفة. ولما بقيت فيولانتي مع أخيها وحدهما قالت لأخيها تريد أن تُطيِّب خاطره:

- سأكلم بابا إذا كانت علاقتكما وصلت إلى هذا الحد. ولكن كما تقول ماما ألا تعرف طبعه... وأعدك ألا آتي لك على ذكر الفتاة التي تعيش في فلورنسا بعد الآن. كنت مولعاً بغنى الأسرة أما هي ففتاة مبالغٌ في تدليلها حتى ليكرهها القلب.

الفصل الثامن والعشرون

من يدلله الحب الممتع

اثنان واحد

في ليلة من أواخر آب عام 1452، لم يستطع بيرو النوم، لا بسبب حرّها، بل لطولها الذي لا نهاية له وقف أمام النافذة بعض الوقت. ثم نام، ثم نهض. خرج لا يطيق البقاء في الغرفة. وجلس تحت شجرة الإجاص التي لا تتحرك أوراقها الخضراء – الصفراء. فك أزرار قبته. التفت إلى الصوت الذي صدر من الغرفة التي تنام فيها كاترين وماريا. لم يخطئ: لما رأته ماريا التي خرجت شبه عارية هربت إلى الغرفة وأخبرت كاترين:

- ها هو بيرو جالس في أرض الدار...
- لماذا يجلس في أرض الدار عند الفجر؟..- قفزت كاترين من الغرفة ملهوفة بقامتها الرشيقة.

استقبل بيرو الذي زرر قميصه بسرعة كاترين:

- صباح الخير يا كاترينا.
- شكراً يا بيرو – ردت كاترين، وسألت: - هل هناك ما يقلقك؟
- خرجت من الغرفة لأن حلماً يحرمني من النوم.
- أي حلم يا بيرو؟
- لا أعرف كيف أحكيه لك، ولا رأيي فيه... رأيت نفسي ومعي شاب شركسي نركب زورقاً دون مجاذيف وأمواج البحر تتقاذفنا.
- هل تتذكر اسمه؟
- ومن أين لي أن أتذكر، كان يقول عن نفسه "شركس".
- أسألك لأني رأيت أخي الأصغر لوبلان في الحلم... – عادت كاترين إلى وعيها وهي تغالب آلامها، وابتسمت لبيرو: مثل هذه الأحلام كانت أمي تقول عنها: الروح والقلب لا ينسى أحدهما الآخر
- ولكن الشاب الشركسي...

- يحدث مثلُ هذا يا بيرو. لا تبالغ في لوعتك. مَن غيرُ أخي يتفقدني!
- لا تقولي هذا يا كاترينا! سأقول لك إذن: – ركع بيرو فجأة أمام الفتاة الأسيرة، – أحبك يا كاترينا!
- قم يا بيرو، سيروننا... — قالت له ثم أضافت بلهجة حنون: – وأنا أيضاً.
- لا يتذكر أحد ليلة أرقّ من هذه الليلة، ولا أحلى لعشاق لا يحتاجون إلى مترجم ولا هم من عرق واحد...

الفصل التاسع والعشرون

الطريق ذو المفارق السبعة السرية

كيف سيكون الطريق السابع

القرنان والثلاثة ليسا شيئاً في تاريخ الدنيا. ليسا أكثر من غمضة عين. هذه المدة ليست قليلة بالقياس إلى الإنسان: تزيد هذه المدة من عمره وعقله وذكائه. إن كان فقيراً أصبح غنياً، وإن كان غنياً يمكن أن يرتدّ فقيراً. وفي تلك السنوات يمرض، ويمكن أن يرحل عن الدنيا في أوانه وقبل أوانه. كلٌّ وما كُتب على جبينه والسنوات التي أمامه، وطرقاته الواضحة السرية، وطرقاته المتعرجة الضيقة، ولا يعرف الأمكنة التي سيتعثر فيها. ولكنه يعرف أن الشجرة إن قطعت

فستتجدد من الجذر، وإن فارق الحياة سيتجدد عِرقه عن طريق أولادة وأحفاده.

قرية شلج التي تنام في مضيق الجبل الشركسي تعيش كسائر القرى الشركسية بين البحر الأسود وبحر آزوف. الناس يولدون فيها ويموتون. ويتبادلون الفرح بزيجاتهم وأعراسهم. ويتحملون معاً أحزان موتاهم. اليوم وأمس وأول من أمس وكما في كل الأيام، وفي كل السنوات تتعاقب فصول السنة الأربعة، باردةًحيناً وحارة حيناً... تشرق الشمس على ما هي عليه، لا تصغر ولا تكبر، من الشرق، وتغرب في الغرب. الليالي مظلمة حيناً ومقمرة حيناً. الأزواج المتحابون يُرزقون بالأولاد كيف سيكون هؤلاء؟ وكيف ستكون طرقاتهم ومصائرهم؟ والنجوم المتناثرة حول القمر لا تتشابه. بعضها عيونها تلمع، والأخرى عيونها باهتة. وهل هذه تتبادل النظرات خِفية كما يفعل البشر، وتتصارع؟ وهل الشهب التي تعبر السماء والشرر يتطاير منها هي ضحايا النجوم؟

بكر غيرُ الشاب الشركسي الذي حلم به بيرو يركب معه في قارب بلا مجذاف تتقاذفه الرياح. إنه جالس على الشاطئ يراقب الأمواج المتلاطمة. أفكاره تتصارع في صدره مثل الأمواج التي يراقبها. أنا

ملومٌ في قضية أخي قرج. ما كان عليّ أن أتصرف معه هكذا. ألسنا سليلي دم واحد؟ ألم نُربَّ في أسرة واحدة؟ أليس أخي الأكبر وإن كان يغضب علي أحياناً؟ ألم يكن يرعاني؟ على كلام جدتي ليس هناك ما لا تدفعك صاحبات غطاء الرأس إلى فِعلِه. مهلاً يا بكر ماذا تقول؟ هل تُحمّلُ الحب الذي لم تستطع حمايته المسؤولية؟ هل نسيت دم مَن سجّيته لوبلان؟ وثأرك من نباب؟..– قذف بكر للبحر بأول حجر وقع في يده. ومن تشفّى منه سخر منه بأمواجه، ولم يسانده. — حتى إن عاملتني أيها البحر هكذا فسترى إن لم أركب طريقك.

التفت بكر إلى خيرت التي نادته، فقال لها بجفاء:

- ماذا أيضاً الآن، ألم أطلب منك أن تتركيني!
- اسمع ما يقوله... أنا هناك أكنس لك باب دارك، فكيف ألحق بك يا أخا قرج الحبيب إليّ، وسطح بيتي يدلف. تعال، أرسلني ماجُخ المؤذن الطيب لتساعده. تعال لا تهتم بكلام الناس الفضوليين. هذه الدنيا الزائلة كما يقول ماجُخ كل إنسان يبحث عن طريقة يعيش بها. أنا لا تظنَّ أني نسيت أخاك صاحب القلب البريء وإن كنت أنت نسيته.

- أنسيت كيف جعلتِني مُضغة بأفواه الناس؟
- أهذا ما تتكلم عليه؟ كنت قلته لك لأختبرك إذ كيف أطمع في أخي حبيبي قرج؟ أنتما الاثنان، وكم مرة قلت لأخيك، لا تدعا بنت جراجه الصغيرة تضحك عليكما.
- وأخوها الأقطع، اغفر لي يا إلهي، ليس من أجل ألا تخدمه ولكن لو جعلتني أعثر على أخيك الأكبر لأقمت لك حفلة تكريم بصفتك أخاه لم تر القرية احتفالاً مثله. ماذا؟ هل قلت لك ما يسوؤك؟ تعال، إذا أغلقتم سقفي المثقوب قلت لكم: مع السلامة.

الفصل الثلاثون

الأسرة التي عانت من الحزن تفرح

الأم التي تخلصت من المخاض تنام

في الرابع عشر من نيسان عام 1452، وقد مضى عيد الفصح، وأيامه المضيئة تمضي. السيد أنطونيو العجوز وابنه السيد بيرو قلقان من صوت الألم الصادر من بيتهما، يجلسان متماسكَي الأيدي في أرض الدار بعد الظهر. الأم أياشيا وابنتها فيولانتي تقفان على باب الدار تتسمعان، تنصرفان عن الباب. وفرانشيسكو من مدة إلى أخرى ينظر نحو الباب بحركة رأس خاطفة. وماريا التي فقدت لونها والتي تُخرج ماء الحوض تعود فتجلس دون جواب.

السيد أنطونيو العجوز يواسي ابنه بيرو الذي لا يستطيع السيطرة على ارتعاش جسمه. سأله عن الاسم الذي سيحمله الصبي القادم إن كان ولداً أو بنتاً. " إذا كان ولداً اتفقت مع كاترين أن نسميه ليوناردو" يقول والده لمن خلفه، والوالد العجوز يُشعره بموافقته عن طريق صرِّ يده.

- ألمُ كاترين يخفّ، ربما بسبب تخلصها من السوائل. وفي اللحظة نفسها ارتفع صراخ وليد يصرع الدار والجيران والدنيا كلها.

حين دخل القلقون الذين كانوا في أرض الدار عرضت عليهم المولِّدة التي ما تزال يدها تقطر دماً الصبي الضخم ذا الرأس الكبير. كانت كاترين التي أرهقها المخاض نائمة.

السيد أنطونيو الذي لم تعد قدماه تحملانه أمسك بوثيقة الكاتب بالعدل، وكتب في ذيلها: "في الساعة الثالثة من ليلة السبت 15نيسان عام 1452، رُزق ابني بيرو بصبي سموه ليوناردو."[10]

---

[10] في علم الأنساب يكتب المرشح [في العلوم] كورش أرتور: ليوناردو دو دافنشي، أفراد أسرته المعدودون من خيرة الناس ليسوا قلائل. بعض أفراد الأسرة: زوجات بيرو، وأطفاله، نوّروا الأمكنة التي عاشوا فيها. وفي هذا السياق فالسؤال الموجه عن كاترين أمّ ليوناردو كان سؤالاً سرياً. من هي؟ ومن أين هي؟

في السنوات العشرين الأخيرة تتصارع الأفكار المتقاربة بعضهم يعتبرون كاترين امرأة جُلبت عبدة من الشرق. وآخرون يقولون هي فلاحة إيطالية.، ولكن تبيّن خطأ الرأي الأخير.

القريب من الصواب أن كاترين كانت عبدة (سبياً) جيء بها من مكان بعيد. كانوا يتبنّون أفكاراً وآراء مختلفة، ولكن الأسئلة: "من أين جاءت كاترين، وكيف وصلت إلى أرض توسكان؟". بقيت مفتوحة. وفجأة وجدوا الجواب. في الرابع عشر من آذار 2023، المؤتمر الذي جرى في فلورنسا ساهم فيه كبار علماء إيطاليا. ولكن كارلو فيشي الأستاذ في جامعة نيوبوليتان المهتم بالأدب وبتاريخ حياة ليوناردو دو دافنشي كشف السر الذي بقي مخفياً طوال خمسمئة عام، وعرف أصل كاترين.

في بداية شهر آذار عام 2023 سمع الناس كلهم جواباً عبرَ القرون. أطلع الأستاذ كارلو فيشي العالم على وثيقة كاتب العدل المكتوبة بخط اليد التي وجدها في مركز وثائق فلورينتيسكا (ص 223) كانت الوثيقة كتبت في الثاني من تشرين الثاني عام 1452 في فلورنسا. تشهد الوثيقة باختصار منْح العبدة كاترين الحرية. ومنظم الوثيقة هو الكاتب بالعدل بيرو دا فنشي. والدُ ليوناردو. تقول الوثيقة: "كاترين بنت يعقوب هي من شركيسيا البعيدة"

في القرون الوسطى كانت تنظَّم مثل هذه الوثائق. وحسب القواعد كان يجلس الكاتب بالعدل والشخص صاحب العلاقة وقت كتابة الوثيقة. ثم يشهد الشهود على صحة ما جاء في الوثيقة. والورقة الأصلية كانت تبقى لصاحب العلاقة. ومختصر الوثيقة تبقى في أرشيف الكاتب بالعدل. وحسب معرفتنا في الخامس عشر من نيسان (تتمة الحاشية ص 224) عام 1452 ولد ليوناردو في قرية صغيرة تسمى أنكيانو. ولم يمض وقت طويل على ولادة الصبي حتى زُوِّجت كاترين من كلاّس. ورُزِقا بخمسة أولاد. وكانت كاترين تعيش دائماً في كامبو زيني. وإلى الآن بقيت عبارات "دروب ليوناردو لصغيرة" و "طريق كاترين" وهذه من أجمل مناطق توسكان.

الفصل الحادي والثلاثون

الطريق يبدأ بالخطوة الأولى

هل يعود إلى مكان الخطوة الأولى

أولاد الأب والأم ينشؤون في الأسرة متشابهين، ولكنهم حين يدخلون معترك الحياة تتغير طباعهم، وأفكارهم وحدسهم ولا تُكِنّ قلوبهم الحب أحدهم للآخر. وكما يتبين من توزع القرى اختلافُ سكانها وكذلك الأسَر التي نسكنها. أحدهم يرفع سقف بيته وسقف حظيرته، والآخر خرجَ عن حدّه. هذا يركب حصاناً، والآخر على ساقيه. غبار حصان الراكب يسفع وجه الراجل. والقوي جسداً يتصرف كما يريد مع الضعيف. أحدهم يُدلَّل، والآخر يُدان. الغني عين كلبه جريئة، والمنكسر كلبه يصرخ.

وبفضل الوثيقة التي وجدوها في عام 1487 في مركز وثائق فلورينتيسك، أمكن تحديد السنوات التي عاشتها كاترين ففي شهر تموز عام 1493 جاءت كاترين لزيارة ابنها الأكبر ليوناردو في ميلان وهي في عمر 66 عاماً. (تتمة الحاشية ص 225) وعاشت هناك أقل من سنة. وتبعاً لما ترك ليوناردو من كتابات كان يحب أمه ويشفق عليها، ويرعاها. ومن بين رسوماته الأنثوية تحمل الموناليزا ملامح وجه أمه .

وفي أواخر شهر حزيران عام 1494 توفيت كاترين في ميلان. ومن عمق محبة ليوناردو وتقديره لها دفنها في كنيسة سان فرنسيسكو الكبيرة

كان العثور على "الكتاب الذي يمنح كاترين الحرية" في مركز فلورنسا خبراً مدوياً في العالم كله .

لا شكَّ في أن الرابع عشر من آذار عام 2023 سيكون يوماً مشهوداً في من يود معرفة تاريخ دافنشي ولدى جميع الشراكسة في أنحاء العالم.

- "لماذا تخطر لي مثل هذه الخواطر في الوقت الذي أعرف فيه إلى من ولماذا أذهب، ولا أعرف إلى أين أذهب" – وضع بكر قدمه على الطريق ناوياً حمل ما تبقّى من إرث أخيه المنثور في ثلاثة أمكنة: – الكيس والجيب والصدر. خرج من البيت واضعاً إياها في المتناول. حين رأى بكرُ خيرت تدخل إلى الدار حاملة الكيس غير الكبير الذي كان في صدرها بيديها قال لنفسه " ماذا تريد هذه في هذا الوقت المبكر؟" سألها:
- هل هناك ما يدعو للحزن...
- وهل عندي سبب للحزن أكثر منكما أنتما الأخوان؟ ما أحسن أني لحقت بك في الوقت المناسب! هذا الكيس ليس حملاً ثقيلاً، ينفعك على الطريق.
- ما هذا؟
- ما هذا السؤال! هذا واحد من الخراف الثلاثة التي أعطيتِني إياها. طلبت من بعضهم ذبحها، وجففتها وطحنتها. هذا ما أستطيع أن أقدمه لك. إن جئتني بأخيك فسأرفق بالخروفين الآخرين واحداً من عندي، وأُعِد لكم وليمة محترمة. أعرف أنك كنت أمس في زيارة قبر ابن جراجه. إن حققت توسله إليك وأعدت إليه أخته، لا أعرف إن كنت سأكون سلفة جيدة لها.

ولكن، ولو إكراماً لأخيك الكبير، لن أسيء إليك. تعال دعْني أعانقك. سأرسلك إلى طريقك وكأني عانقت أخاك قرج حبيبي. وكما يقول مؤذننا ماجُخ، فالله حريص، فاحرص على نفسك. كانت جدتي المسكينة تقول: " من يشرع في طريق فلن يستعصي عليه" ستصادف في الطريق كثيراً من الناس وغير الناس. أنتم الأخوين أعرفكما، لا تثقا بكل من يبتسم لكما. سأحرس داركم مهما قال القائلون. كما تحرس لاشن أرض آل جراجه – ولو لم أقل.

سار بكر دون أن يلتفت مردداً بينه وبين نفسه: " الطريق يبدأ بالخطوة الأولى. ويعود إلى الجهة التي صدرت منها الخطوة" كيف سيكون هذا الطريق؟!

الفصل الثاني والثلاثون

الحب نار وقادة، النار الوقادة تُحرق

الريح التي تهب تحمل رماده

تيسر طريق بكر حتى قافا. صدف أن كانت الريح هادئة فأبحر بقارب ذي ستة مجاذيف دون أن يدفع ثمناً غالياً، عبر مضيقاً قريباً ووصل راجلاً في ثلاثة أيام إلى قافا وظل على مينائه يوماً ونصف يبحث عن بانوج وسفينته. بكر الذي لا يعرف إلا اللغة الشركسية

كان يسأل "هل تعرف بانوجه جنوزه قائد السفينة" لم يكن يفهم إجاباتهم بلغة أخرى. ومن لم يكونوا يهتمون بالإجابة لم يكونوا قلائل. ظل يبحث في أرجاء الميناء ناصحاً نفسه، مبعداً اليأس، قائلاً على طريقة ماجُخ: "كل إنسان هو وقدرته على التلاؤم مع دنياه الفانية". وفي حوالي الظهر نظر حيث ترتفع الأغنية الشركسية الحزينة فسمع: "الحب نار وقادة، النار الوقادة تحرق، والريح التي لا تهب تحمل رماده"

توقف بكر عند المغني بائع السمك، وسأله:

- هل أنت أديغي؟
- إن كنت سمعتَني فأنا أديغي.
- ألا تُجفل أغنيتك الحزينة سمك البحر؟
- أحزانها وأحزاني متشابهة. ولكن الأسماك ستشوى على جمرِ ناري، أنت من؟ أراك هنا لأول مرة، اجلسْ!
- سأجلس. أنا اسمي بكر آتي من قرية شلج الواقعة في الطرف الآخر من البحر.
- وأنا اسمي زجر. على ما يبدو من أسمائنا نعرف بعضنا ولا نعرف. مظهرك ليس مثلي إلا إن كنت مهموماً بهمٍّ ما... كما

يقول أهل هذه البلاد "لا جعلك الله مثلي!" إن كنتُ سأصبح موضع سرِّك فأنا سأُطلعك على قصتي. إذا رجعت خمسة عشر عاماً إلى الوراء فقد كنت وقتها في العشرين، خطفَنا نحن أنا وفتاة جارة لي أصغر مني بثلاثة أعوام اثنان من اللصوص المجرمين من منطقة المخوش وجاءا بنا إلى هنا. منذ طفولتي كنت أحبها. زوليخان الحبيبة التي لم أمسها بيد واحدة اشتراها تحت نظري في القسطنطينية عجوز تركي فلم تقع عيني عليها بعد ذلك. وأما العربي – البدوي الذي اشتراني أنا وكان يأخذني إلى قونيه فقد هربت منه، واختبأت منه عند غَلَطَه التي أقمت فيها مختبئاً بضع سنوات. أدمنت على عقار معين فهربت وأقمت هنا منذ بضع سنوات.

- أليس لك في المخوش من تعود لأجله؟
- من كان عندي هناك وهنا انتهى... — جلس زجر برأس مطرق بعض الوقت، ثم انتهى من قصته: – تراني بقيت حياً ولكني فقدت ملامح الإنسان. الحب نار هائلة، والنار الهائلة تحرق. ورماده تنثره الريح المعدومة... ماذا أقول لك أكثر من هذا... كثير من أمثالي هنا وفي العالم ذهبوا تحت الأرجل. والآن إن كان

ما يحرق قلبك فأطلِعني، سأنصحك النصيحة الوحيدة التي أنفعك بها.

- شكراً يا زجر، فهمت وصيتك، ولكن لست خالياً من همّ كبير. الناس الذين يعملون ويتحركون هنا لا يعرفون لغتي، لا يفهمون ما أسأل عنه.
- لماذا لا يعرفون لغتنا؟ – غضب زجر. – هذه بلدتنا! لهجة القبرتاي ولهجة المخوش ولهجة الشابسغ كلها فيها " قافَم " وأشباهها هل تعرف معانيها[11] اسأل هذه الأمواج المتدافعة تجيبك. ولكن الأعاجم الذين سألتهم يجب أن يفرحوا بسماحنا لهم أن يعيشوا في مدينتنا. أسمِعني الآن مشكلتك!

بانوج الجنوي التاجر إذا كنت تعرفه. لم يدع زجر بكراً يكمل كلامه:

- من لا يعرف هذا الكذاب عديم الشرف؟ خدعك كما خدعني؟ اتخذني مترجماً له ولم يعطني شيئاً من أتعابي. وأنت ماذا فعل بك؟

---

11 " قافا " في اللغة الشركسية – الأديغية تعني الرقص. في القصة أن رجلاً من الأديغة كان يراقب الأمواج وهو على الشاطئ، شبه تلاحق الأمواج وهدوءها براقص هادئ وبالرقصات الهادئة. ومن هنا سُمّي هذا المكان " قافا "تبعاً لأقوال بعض الشراكسة.

- مارس ظلماً على أخي وإحدى بنات قريتي.
- متى؟
- قبل مدة غير قصيرة.
- "مدة غير قصيرة" يا أيها المنحوس تعني أمس، أول من أمس، العام الماضي...
- العام قبل الماضي.
- يبدو أني لم أخطئ: الحب نار هائلة، النار الهائلة تحرق، ورماده يتطاير دون ريح؛ أليس كذلك؟ أين كنت إلى الآن يا منحوس؟ هل كنت مقيداً إلى جبل ألبروز كما قيَّد باكو شأه غواله نسرينَ الزعيم المبارك؟ ربما أنا وأنت وأمثالنا من دفع القائل إلى أن يقول "الأديغي يصحو عقله متأخراً ". ولكن لا داعي لليأس. أعرف صديقاً لبانوج يعرف الأديغية والإيطالية والروسية والفرنسية والتترية... وماذا أيضاً... ربما من عمرك أو أكبر منك، واسمه آدم، سأصلك به، ولكنه لجوج جداً... كما تستطيعان الاتفاق.

عرّف زجر بكراً على المترجم آدم السابق ذِكرُه. وفي الصباح التالي ساعة الانطلاق، توسل بكر إلى زجر وهو يدسّ في يده بعض المال:

- إذا قلتُ لا تكن مشتاقاً لمن جعل دمك يغلي فإننا أنت وأنا نخدع بعضنا. ولكن إذا تحليت بالرجولة ووقفت هنا تنتظرني لابساً ما يناسبك، فسأرافقك إلى المكان الذي جاؤوا منه بك.

قال بكر لزجر وهو يعانقه للوداع عناقاً يائساً:

- حسنٌ إذا كنت ستعود، أنتظرك.

في اليوم نفسه من أين كان لبكر ومترجمه آدم أن يعرفا أن اللص الذي كان يترصد زجر قتله وألقاه في البحر.

الفصل الثالث والثلاثون

ا بن نار أبدية

من يُحرقك، ومن يوقِّرك ابنك

بعدما غادروا ميناء قافا، وساروا قليلاً قال بكر لآدم الذي يظل يتأمل البحر:

- ما دمنا نسلك طريقاً واحداً فلْنتبادل الثقة بيننا أكثرَ من ذي قبل، ولنتصرف كأصدقاء.
- أنا لا أرافق من لا أثق به في طريق.
- أقول إن مرافقة أحد لا تعرفه في هذا العالَم الرديء، ومنْحَه ثقتك هو نوع من الرجولة.

- ألستَ أديغياً فلا أثقَ بك؟
- ما تقوله قد يكون صحيحاً. ولكني أنا نصف أديغي، أعرف الأديغية فقط.
- كيف؟
- أنا أديغي الأم، وكورسيكي الأب، يعني فرنسي. هل سمعت بمثل هذا العِرق؟
- لو سمع مؤذننا ماجُخ ما قلتَه لي لقال: "سبحان الله!" سمعت بالـ "فرانكارداش "[12] ولكني أسمع بالكورسيك أول مرة.
- كورسيكا ليس اسم عرق بشري. بل جزيرة. يعيش فيها الفرنسيون والفلورنسيون والعرب والرومان والإسبان. وجزيرة سردينيا، إن كنت سمعت بها، على يسارنا مسير يومين. وسنترجل من السفينة في مدينة فلورنسا.
- إذن من أي مدينة كان يأتي بانوج الذي يمارس البيع والشراء بالسفينة؟ – سأل بكر متصوراً أن المترجم نسي اسم المدينة التي كان يسمع بها.

---

[12] المقصود بالفرانكارداش أن جمهورية جنوة كانت قائمة يوماً على أرض دولة فرانك التي عاش فيها. ويجب أن يكون هذا السبب في أن المستوطنين يسمي بعضهم بعضاً بالإخوة الفرانك.

- ألم أقل لك! قضيتك في مدينة فلورنسا.
- من أين تعرف؟
- لو كان بانوج الذي سألتَ عنه حياً لقت لك: اسأله. دفنوه في قافا العام الماضي. لا أعرف أين أخوك الكبير ولكن أقول لك مكان كاترين التي ضحى من أجلها، كما أخبرني بانوج: في قرية أنكينو، ليس بعيداً عن مدينة فلورنسا، وقريباً من فينجي المدينة الصغيرة. إذا كان المبلغ الذي أخذته منك أجرةً كبيراً فلا تؤاخذني؛ هذه أوضاع العالم الذي نعيش فيه. اطّلعت قليلاً على المأساة التي جرت لكم فمشيت معك على الطريق لأخفف العبء عنك. وهناك أنت وما يجري لك.
- على مبدأ من يبدأ طريقاً لا يضيع فيه، خدم آدم ابن عِرق أمه على قدر المستطاع. نادى آدم السيد العجوز أنطونيو الذي كان جليس ليوناردو النائم في السرير المعلق بشجرة الإجّاص:
- يا سيد هل تسمح لنا بدخول دارك؟ أنطونيو العجوز استقبلهم بالعصا التي يريد أن يُفهمهم بها أنكم ستوقظون الصغير. قال آدم المترجم الآن بصوت ألطف: – هذا الشاب المرافق لي اسمه بكر، وهو يأتي من بلاد الشركس، له موضوع معكم.

كاترين التي كانت تغسل الملابس والتي سمعت اسم بكر ركضت مرتاعة بدلاً من أن تستقبلهم، وضمت إلى صدرها الصبي الذي أنزلته من الشجرة. ووقفت ماريا إلى جانب كاترين.

عاد العجوز السيد أنطونيو إلى مجلسه مستعيناً بالعصا مخفياً الشك الذي داهم قلبه، وقال لأحد الشابين الذي سمع اسمه، دون أن يدعوهما للجلوس:

- أسمعك!
- أجاب بكر عبْرَ المترجمِ العجوزَ الذي لاحظ بكر عدم ارتياحه:
- أنا أحقق أمنية صديقي لوبلان الأخ الأصغر لهذه المرأة كاترين الممسكة بالصبي.

لم تملك كاترين نفسها أن صرخت:

- أين أخي الأصغر لوبلان؟ لماذا ليس معك؟
- لم يعد في مقدور لوبلان أن يأتي إليك... لم يعش أسبوعاً بعدما رموه من السفينة.
- يا للمصيبة!..- أغلقت كاترين شفتيها بإحدى كفيها كي لا ترعب الصبي، وصرخت وهي تضغط باليد الأخرى على صدر ليوناردو: - توجست من هذا!

قال السيد العجوز أنطونيو لفيولانتي التي ركضت من الغرفة:

- خذي من كاترين الصبيَّ! – حين دخلت النساء الغرفة، أجلس العجوز بكراً وآدم اللذين حملا الخبر المفجع ولامهما: لا أعرف عاداتكم في نواحيكم في بلاد الشركس، أما أنتما فلم تتصرفا معي بأسلوب صحيح. لو رويتما المأساة حريصَين علينا لكنا أكثر جهوزية لتلقي الخبر.
- عندنا كما عندكم الخبر الحزين خبر حزين. سألت كاترين بشكل مفاجئ عن أخيها فأجبتُ بلا شعور بالخبر الفاجع.
- جرى ما جرى وانتهى الأمر، لا إمكان لتغيير شيء فيه. إذن أُخبركم بما جرى: كاترين ليست زوجة ابني، ولا هي كَنّتي. اشتريتها من سوق الرقيق في جنوة. والصبي الذي ولدته صار جزءاً منا حسب قوانين بلادنا. هذا ما أستطيع إخباركم به اليوم. إن كانت لديكما مشكلة أُخرى فهاتوها , لا يمكن أن أُتوّهكم في غير بلادكم.

قال بكر ضاغطاً على آلامه، وعلى الأخبار غير المنتظرة:

- في السفينة التي كانت كاترين فيها كان أخي الأسير أيضاً.

- هذا أسمعه لأول مرة. ما أعرفه هو أن كاترين الشركسية وماريا الروسية اشتريتهما من سوق الرقيق بجنوة. هكذا جرت الأحداث كما ترون. أنا سأتفقد النساء، وأنتم أكيد توقفتم في بينجي. إذا جئتم غداً وقد هدأت أسرتنا فسنبحث المزيد من قضايانا.

في اليوم التالي قال العجوز أنطونيو للضيفين، متوجهاً خصوصاً إلى بكر:

- لم أتكلم إلى كاترين في شأنكما. ولم أسألها عن أخيك الكبير. تكلّما إلى كاترين شخصياً، سأنفذ ما تطلبه كاترين. ولكن ما لن أنفذه لها ولهما أمر واحد: – عندما جاؤوه بكاترين قال لها: – هذان الشابان اللذان من عرقك الشركسي يريدان إعادتك إلى بلادك. لا أعرف رأيك. إن قلتِ الآن حالاً فأوراق حريتك أنت وصديقتك الروسية التي اتخذتِها أختاً جاهزة منذ وقت طويل.

قالت كاترين وهي التي كانت متوجسة منذ أن رُزقت بطفل:

- إن كان طفلي ليوناردو سيكون معي فأنا جاهزة من هذه اللحظة.

رفض السيد طلب كاترين وخداه تحمرّان:

- ليوناردو لنا! – ثم اختتم بصوت ألطف: –ولدتِ لنا الطفل الذي يبعث في السعادة في شيخوختي. كما هو من دمك فهو من دمنا أيضاً. ما تزالين صبية، والحظ في طريقه إليك. ستجدين من يدللك ومن يجعلك سعيدة الحظ. ولكن مهما خدمتك في الدنيا فلن أتخلى عن الصبي.

قالت كاترين للعجوز الذي يغالب دموعه وقد أيقنت أنها لن تحصل على الطفل:

- اطمئنَّ أيها الرحيم سيد أنطونيو. وهذا كلام ابنك السيد بيرو. أنا وماريا راضيتان عما أسديت لنا من معروف. لم تتخل عنا. وأنتم أيضاً ليوشيا، وفيولانتي وفرنشيسكو. ولْتعُدْ أختي ماريا إلى قومها.
- هل أتركك وحيدة؟ – أسرعت ماريا بالتعليق.
- ولماذا أكون وحيدة وأنا مع طفلي... — قالت كاترين ولما نظرت في وجه ليوناردو فرحة وحزينة، نظر الطفل في وجه أمه النظرة نفسها وكأنه فهم ما يجري.

الفصل الرابع والثلاثون

القلب يرتاح في البلد الغريب

الأرض التي ليست لك تُحرق قدمك

خرج الثلاثةُ من بلدة أنكيناو المنثورة في سلاسل التلال الربيعية الخضراء المتنوعة، وماريا التي لم تكن تقول شيئاً مسحت دموعها، وبكر يبكي في قلبه متحدياً الأحداث المتعاقبة التي خاضها. وآدم الذي يتفهم ما يعتلج في قلب كلٍّ من رفيقيه يعظهما بنظرات صامتة. الوحيدة التي لم تكن مهمومة بشيء هي العربة ذات العجلات الأربع التي تثير شيئاً من غبار الطريق. الشمس التي ترى قمم الجبال في بلاد الأديغة، والأنهار والسيول التي تتلاقى وتتفرق تنظر من سماء إيطاليا. والريح اللطيفة السريعة التي لا تعرف أحزان كاترين التي بقيت وحيدة في أنكيانو تهز أعشاب الطريق وأوراق الأشجار المتنوعة الألوان. والسحابة الوحيدة الضالة في السماء تتوه ساخرة في الغابة الكثيفة..

قال بكر للمترجم آدم وكأنه صديق ماريا من القدم:

- لا تبكي يا أختي، لا نستطيع أن نغير شيئاً في ما جرى لنا.

- أنا لا أبكي شخصي – أجابت ماريا بكراً، – أبكي المسكينة كاترين وطفلها. شكراً للسيد أنطونيو على ما فعل لأجلنا. ولكنه لم يتصرف جيداً نحو طفل كاترين. لو أعطى الطفل لكاترين لعادت معنا. مهما كان السيد أنطونيو رحيماً فإنه لن يجعل من كاترين الأسيرة عضواً في الأسرة. وأنتم سمعتم هذا...

– انفجرت ماريا بكاء – ما كان يليق بي أن أترك كاترين بينهم وأعود معكم. لولا كاترين كنت فارقت الحياة منذ زمن بعيد.

مرة أخرى نظر آدم نظرة مودة إلى ماريا، وهدّأها:

- احرصي على نفسك، على صحتك. ما فعلته كاترين بطفلها صحيح. ولو كنتِ مكانها لفعلتِ ما فعلتْ. وأنت يا بكر مع سوء حظك تنفذ توسل كاترين من أجل ماريا. وفي موضوع أخيك المأسور في سردينيا إذا وصلنا إلى قافا وقد تحققت أمنيتنا فيه فسنتكلم في ما سنقدِّم لماريا وما سنسلكه معها.

نظرت ماريا الآن إلى آدم بودٍّ وقالت:

– سيتحقق لكم. كان يتردد اسمُ روميٍّ اشتراه، وهو غريغوريوس من سردينيا.

- –هل قلت غريغوريوس الرومي؟ –انتفض آدم لسماع الاسم، – إن كان هذا الرومي فأنا أعرفه، يشتري الأسرى ويبيعهم. لا تيأس يا بكر، لابد أن نجد طريقة للوصول إليه.
- من كانت المسكينة كاترينا تتمناه إلى هذا الحد هل يفقد الأمل؟.. تعقّبْه ولو متأخراً قليلاً... – وافقت ماريا آدم وهي تبتسم لبكر، وبعد وقفة قصيرة قالت لنفسها: – لو كانت الأمور تجري في الدنيا كما تريد، على رأي كاترين...
- نعم يا ماريا، لو جرت الأمور في الدنيا على هوانا... ما أستطيع فعله ولو كان متأخراً فعلتُه لأجل كاترين. وفعلت لأخيها لوبلان آخر طلباته. ولكن ليس في هذه المنطقة كان عليّ أن أكشف لكاترين نيتي الخيِّرة. بل في بلادنا... لو فعلت هكذا لما جرى لنا ما جرى. ... – توقف بكر، ثم اختتم: – فعلت كاترين المحصورة ما فعلت لوجود من تفعل لأجله. لو لم تتصرف كاترين وحدها لكان قلبي وباب بيتي مفتوحاً لهما. ولكن لن أترك أخي الكبير في بلاد الغربة.
- حسناً، – ابتسم آدم متشوقاً لماريا. – ووافق بكراً – القلب لا يستريح في بلاد الغربة، تحرق قدميك دون أن تخرج منها كما كانت أمي تقول. ونحن لن نقصِّر في شيء من هذا.

- وهل أنت وحيدة أيضاً، سأل آدم ماريا مشفقاً عليها. وأنا لأني في الدنيا مثل كاترين. لا يا كاترين لا، كاترين لا، لستِ وحدك سامحيني ابنك اسمه ليوناردو، يذكِّرك بأخيك الأصغر لوبلان. وكما كنت تقولين هو معك. أليس صحيحاً يا آدم؟
- صحيح. لم يكن بكر من سألته ماري، ولكنها صارت شاهدة على من تعتبرها أختاً. ثم غيرت الموضوع: - ليس ميناء فلورنسا بعيداً.

كما قدّر الله، ففي الميناء نفسه ركب الثلاثة السفينة المبحرة إلى جزيرة سردينيا. ووصلوا ساعة علت الشمس إلى كبد السماء. سأل آدم عن غريغوري التاجر فابتسم المسؤول ودلّهم على مقر عمله غير البعيد.

حين دخل الثلاثة البيت قال غريغوري الرجلُ الضخم الأسمر ذو العينين الواسعتين والأنف الكبير دون احترام لمن أمامه:

- لا أسأل عن ثمن المرأة التي جئتموني بها. أعطيكم خمس ليرات.
- أنت مخطئ يا غريغوريوس... — أجاب آدمُ البائعَ. - هذه الفتاة لو دفعتَ فيها مئة ضعفِ ما دفعتَ ما شجعتنا على بيعها. من سنشتريه منك شخص آخر.

- من ستشترونه مني؟ إذا دفعتم جيداً بعتكم.

لم تملك ماريا صوتها فاندفعت:

- هذا الذي يسخر منا يا بكر قل له إنه أخوك الأكبر. – ثم عادت إلى هدوئها فقالت لغريغوريوس: نحن نسأل عن قرج الذي اشتريته قبل أعوام من بانوج.
- أهذا من تريدونه؟ ضحك غريغوري من أعماق قلبه. هذا الأكول الذي يقدح غضباً ولا يعمل شيئاً. سأدفع لكم السعر الذي دفعته فيه، وتريحونني منه. مهلاً مهلاً أمزح معكم. فوق الثلاثين ليرة التي دفعتها فيه أريد عشراً.

الخاتم الذهبي الذي لم تأخذه كاترين من بكر قبل أيام، حين وضعته أمام غريغوريوس أبرز له إبهامه علامة قَبول، ونادى خادمه:

- أعد لهؤلاء الشركسيَّ مربي الدجاج!
- هذا غير كافٍ أرفقْ به وثيقة شراء له من جديد.
- ليس هذا مهماً، إذا استطعتم بيعه فبيعوه!
- رأى قرج الجالس على أرومة في الشمس على جدار حظيرة الدجاج أخاه بكراً، فمد يده غير قادر على النهوض.

- بكر... يا أخي الصغير، هذا أنت! كيف وجدتني في بلاد الغربة؟

عانق بكر أخاه ودموع الحزن تخنقه.

الفصل الخامس والثلاثون

نسيم أطيب من نسيم بلادك

و ألطف منه في العالم كله

بكر وقرج تركا في قافا الاثنين اللذين تحابا في الطريق آدم وماري. واجتازا بقارب مستأجر بحر آزوف. وصلا إلى تخوم قريتهما، فانكب قرج على الأرض ساجداً، ودعا:

- اغفر لي يا أرضي ما عملت بحضرتك، وما جعلتهم يفعلونه. أتوسل إليك أن تجعل أخي سعيداً وإن كنت أنا شقياً.

قال بكر لأخيه الأكبر وصورة كاترينا أمام ناظريه:

- لستَ قليل الحظ يا أخي الكبير، انهضْ تنتظرك خيرت!

خاتمة

تبعاً لرؤيتي وسردي فالكتاب الذي فيه سنوات عمري الثقيلة أمامكم أو بين أيديكم. يسرني أن تقرؤوه. إن لم يعجبكم فما العمل؟ كل إنسان يعيش ويتصرف كما يريد، فلن أعتب عليكم. إن رأيتم في الكتاب بعض النواقص نتيجة شيء من جهلي وعدم انتباهي فاغفروه لي. وكما يقال: رأسان خير من رأس واحد فسأعالج هذه النواقص مع الملاحظات.

وأنا أتفهم أن الحياة مركَّبة من كثير من أفعالِ الخير أقدم شكري الجزيل للكاتب والمفكر الإيطالي كارلو فيشي الذي عرّفنا أن من ولدتْ ليوناردو دو دافنشي الفنان العالمي هي امرأة أديغية.

والآن سأُطلعكم باختصار على بعض الناس الذين عاصروا " عين من السماء " من التاريخ الإيطالي والذين لا تعرفون أنتم أخبارهم وأنا أعرف شيئاً منها. قرج حين عادوا به إلى قريته لم يكمل العام الواحد من العمر بعد الأسر. وخيرت عاشت بعده ست سنوات والناس يتعجبون من إخلاصها له. نباب لم يدخل قرية شلج بعدما خبّأ نفسه. ولا أحد عرف ماذا حل به. لاشِن عاشت أكثر من ثمانين عاماً ثابتة على طبيعتها الخيِّرة. وشاركت القريةُ كلها في جنازتها.

والمؤذن ماجُخ لما رجع من الحج، عاش حتى الثامنة والستين بلقب الحاج ماجُخ، حتى توفاه الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يطلب هو شيئاً من أحد. وبكر الذي أحب في حياته واحدة فقط، توفي في عمر السادسة والثلاثين فدُفن إلى جانب صديقه لوبلان وأخيه قرج وجدته غشفج. وآدم وماري اللذان تحابا في الطريق ماتا في قافا دون ذرية.

السيد أنطونيو ليوناردو لما ولد حفيده ليوناردو كان عمره ثمانين عاماً، ولم يُضف كثيراً إلى هذا الرقم. وكما تقرّر في أسرة كُتاب العدل فوالدة ليوناردو دافنشي كاترين جاءها رجل من أتابريغ فزوجوها منه. فولدت عام 1454 فتاة اسموها بيرا، ثم ولدت في السنوات القليلة التالية ماريا وإليزابيت وساندرا، وصبياً اسمه فرانشيسكو. وعاشت سبعة وستين عاماً.

وبعدها لم يعش أتابريغي طويلاً. بيرو والد الطفل ليوناردو الذي ولدته كاترين من غير زواج رسمي تزوج عدة مرات ومات عام 1504 عن خمسة وستين عاماً. ولا أعرف شيئاً عن فيولانتي أخته، ولا عن أمه ليوشيا. ولا أعرف أيضاً مصير أخيها الأصغر فرانشيسكو. ولا

أعرف عن كاترين وزوجها أكاتابيرغ، وعن بناتهما الأربع وصبيهما الوحيد.

الفنان المعروف في كل أنحاء العالم ليوناردو دو دافنشي ولد كما تعرفون في قرية أنكيانو دون زواج رسمي في الخامس عشر من نيسان عام 1452 وتوفي في فرنسا في عمر والدته 67 عاماً في الثاني من أيار عام 1519 دون أن يتزوج.

وبناء على رغبة ليوناردو دو دافنشي دُفن في كنيسة سفياتوي فلورنتي الكائنة في أمبواز. وقبر دافنشي لم يستقر في ذلك المكان؛ ففي القرن السادس عشر بدأت حروب الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا فهُدمت الكنائس في كل مكان ونُهبت، وقُتل من فيها.

في عام 1807، في عصر نابوليون، مُنحت قلعة أمبواز التي أرهقها نابليون للقنصل الثالث روجيه ديوكو. وبأمرة فُككت كنيسة سفياتوي فلورنتين نصف المهدمة. واستُفيد من الأحجار في ترميم القلعة.

تذكر الفرنسيون بعد ثلاثمئة سنة قبر ليوناردو دو دافنشي، وبدؤوا نبش كنيسة سفياتوي فلورنتي. والعظام البشرية التي وجدوها اختلط

بعضها ببعض. ولما كان ليوناردو ضخم الجثة والرأس تمكنوا من تجميع أشلائه. ودفنوها في أمبواز. ولكن لم يطمئنوا إلى هذا. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية أخرجَ بوَّابُ سليل آخر الملوك هنريك أورليانسكي عظام ليوناردو من كنيسة سفياتوي فلورنتين. وعلى ما يروى فقد كان موسوليني يريد إهداءها إلى هتلر عرفاناً بالجميل وخلال خمس سنوات بقيت العظام في صندوق تحت سرير الحاجب، كان يحرسها بعناية مثمِّناً إياها جداً. في نهاية الحرب العالمية الثانية حين تحرر هنريك أورليان فهِم أصل القضية. وعلى ما يروى فإن ملك أمبواز دفن عظام ليوناردو دو دافنشي سراً في مستراحه، وقد حمل سره معه إلى قبره.

وإلى الآن لا يزال موضوع معرفة عظام ليوناردو دو دافنشي موضوع بحث. وحلُّ هذه المشكلة في رأي الخبراء الطليان أنه سيكون من المفيد إجراء تحاليل الحمض النووي على عظام الفنان وعظام أقربائه ولكن الإدارة الفرنسية تجد الأعذار لإيقاف مثل هذه الإجراءات.

في كنيسة سانتا كروشيه الكائنة في مدينة فلورنسا دفن الناس المعروفون من توسكانيا: نيكولا مكيافيلي، وجياكينو روسّيني،

ميخائيل أنجيلو بوناريتي، وغاليليو غاليلي، وأخرون. وتركوا لليوناردو دو دافنشي مكاناً هنا.

أتذكر أني وقفت على قبر ليوناردو دو دافنشي في فرنسا حيث يُكنّون له تقديراً عظيماً. وقد مضى على هذا الحادث عشرة أعوام. من أين كان لي أن أعرف، ومن كان يُخبرني أن ليوناردو الذي لمس جباه كل أعراق العالم هو أديغي الأم؟! ما زال قلبي يقول لي أن أزور مرة أخرى قبر ابن عرقنا وأدعو له. كيف لك هذا وأنت قاربت أعوامك الخمسة والتسعين! إن حدث أن جسدي لم يستطع هذا فسأدعو لمن يستطيع أن يكون طريقه طريق خير، لا كطريق كاترين، بل طريق الحظ السعيد.